مادلّ عليه القرآن

مِمّا يعضُدُ الهيئةَ الجديدةَ القويمةَ البرهان

تأليف

السيد محمود شكري الآلوسي

تحقيق

محمد زهير الشاويش

تخريج

محمد ناصر الدين الألباني

جَميع الحُقوق محفوظَة

الطبعَة الثانيَة
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ٣٧٧١/١١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم.

وبعد؛ فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى نبيه محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، الله الذي له ما في السماوات والأرض. فالقرآن كتاب هداية وإرشاد إلى الطريق المستقيم الذي يضمن خيري الدنيا والآخرة ويبلّغ مرضاة الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وليس القرآن كتاباً في العلوم الكونية حتى نردَّ إليه كلَّ نظرية، ونفتش فيه عن كل مكتشف، كما يفعل بعض الناس في أيامنا هذه، فيأتون أحياناً بالعجب الذي لا يخطر على بال. ما يكاد هؤلاء الناس يسمعون بنظرية علمية رائجة حتى يحاولوا أن يحملوا بعض آيات الكتاب المبين على الدلالة عليها، ويقسروها على تضمنها، مائلين بها عن وجهها، ظانين في ذلك خدمة الإسلام. والنظرياتُ العلميةُ يعرض لها التغير؛ تبَطلُ نظرية وتقومُ نظرية، ويحلُّ رأي محل رأي، ويكشفُ البحث عن جديد ينقضُ القديم، أو يعدِّل

فيه، فيوقعونَ أنفسهم في الحرج، ويَتَسبَّبُون في نسبةِ التناقضِ إلى كتاب الله عز وجل، وهم عن ذلك في غنى، لأن كتاب الله خالد لا يتغيرُ ولا يتبدلُ ليوافقَ كل نظرية، ويؤيدَ كلَّ رأيٍ، ولأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

❁ ❁

قلنا إن القرآن ليس كتاباً في العلوم الكونية، ولكننا نحب أن نبين أنه ربما أشار إلى بعض الحقائق والنواميس الكونية، وهو يحث الناس على النظر والتأمل ويرشدهم إلى عظمة ما خلق الله ليهديهم إليه. فما أشار إليه الله هو الحق الذي لا يمكنُ أن تَتَناقَضَ معهُ الحقائق العلمية التي يثبتها البحث إثباتاً قاطعاً، وكم بين هذه الحقائق وبين النظريات والفروض من فرق.

ولكنْ، أليسَ للقرآن علاقةٌ أخرى بالعلوم الكونية؟

الجواب على ذلك: بلى. فالقرآن قد أرشدنا إلى الطريقة السديدة في البحث، التي توصلُ إلى الحقائق، ووضعَ لنا أساسَ المنهج العلمي السليم.

إن المنهجَ العلمي السليم في البحث إنما يقوم في لُبابه على النظر والملاحظة وتحكيم الفكر في هذا النظر وهذه الملاحظة، وهو ما أرشد إليه الله في كتابه الكريم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [يونس: ١٠١].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟...﴾ [سبأ: ٤٦].

فالنظر الواعي والملاحظة العميقة وإعمال الفكر هي مفتاح كل تقدّم وكشف، وهي التي فتحت للعلم آفاقه، وأخرجت للناس ثماره، وهي التي ندبنا إليها ربنا، واستفاد منها سلفنا.. وهكذا يمكن أن نقول:

إن القرآن قد أعطانا مفتاح المعرفة في العلوم المختلفة.. وليس يُطلب منه، ولا هو من غرضه، أن يقدم لنا تفصيلاتها المختلفة، وجزئياتها الكثيرة. وحسبه أنه حطّم أمام العقل القيود، ورفع عنه الحُجب، وحفزه إلى الانطلاق على ألا يتجاوز حده ويتخطى ميدانه.

والكتاب الذي في يدك أيها القارئ

«ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة»

للعلامة الشيخ محمود شكري الألوسي[1]: «يعرض ما تقول به «الهيئة الجديدة» مما لا يعارض كثير منه النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ويجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سُور القرآن على ترتيب سورها، ويخص منها المشتملة على الأجرام العلوية، والأجرام السفلية، ويذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين، ملتزماً في ذلك طريق الاختصار، وأصح الأقوال، وأصوب الأفكار».

وهو في ذلك كله لا يتمَّحل، ولا يعدل بالنصوص عن وجوهها، ولا يصرفها عن دلالاتها، ولا يحكم فيها النظريات الشائعة، وإنما يقرر في مطلع كتابه منهجه الذي يضع الأمور مواضعها في هذا الأمر، ويتجافى عن طريقة الذين يجعلون القرآن كتاباً في العلوم الكونية، ومخزناً لأفراد المكتشفات والمخترعات، ويخضعونه لكل نظرية شائعة حقاً كانت أو باطلاً، وباقية أم زائلة. يقول عن «الهيئة الجديدة»:

«رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنة على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك، لم يلتفت إليها، ولم نؤول النصوص

---

(١) نقلاً من مقدمة المؤلف، الصفحة ١٤.

لأجلها. والتأويلُ فيهما ليس من مذاهب السلف الحَرِيّة بالقبول، بل لا بُدَّ أنْ نقول: إنَّ المخالف لهما مشتمل على خللٍ فيه؛ فإن العقل الصريح لا يخالف النقلَ الصحيحَ، بل كلٌ منهما يصدّق الآخر ويؤيِّده.

وأعلم أن الشريعة الغرّاءَ لم تَرِدْ باستيعاب قواعد العلوم الرياضية، إنَّما وردت بما يستوجب سعادةَ المكلَّفين في العاجل والآجل، وبيان ما يتوصّلون به إلى الفوز بالنعيم المقيم، وربما أشارت ـ لهذهِ الأغراض ـ إلى ما يستنبط منه بعضُ القواعد الرياضية».

ويقول في الصفحة (٢٩):

«وإذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل، وبين ما يقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء، فلا بأس به، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين.

وإذا لم يكن ذلك، فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع، وتنزلت به أملاك الحق».

❁❁

وقد دفع إلينا هذا الكتاب لنقوم بطبعه فضيلة العالم العامل الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ رئيس جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحجاز، وليس يوجد منه إلا هذه النسخة الوحيدة لفضيلة الأستاذ الجليل محمد بهجة الأثري[1].

وقد تولينا طباعة الكتاب وتصحيحه، وترجمنا لمن ورد ذكرهم فيه، وصنعنا له فهارس للموضوعات والكتب والأعلام[2]، رجاء أن نزيد الفائدة منه.

---

(١) تغمدهما الله برحمته.

(٢) تشمل المتن والتعليقات على السواء.

أما الآيات فقد رقمها وضبطها فضيلة الأستاذ الأثري ـ جزاه الله خيراً ـ[1] كما علق بعض تعليقات ذيلناها باسمه تمييزاً لها عما صنعناه.

وأما الأحاديث فقد خرجها أستاذنا المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني وجعلنا تخريجها مع فهرس الحديث في آخر الكتاب، في الطبعة الأولى، لأن المخرج لها تأخر في تقديمها أثناء الطبع.

والآن جعلناها في كل حاشية ورد فيها الحديث. وأضفنا بعض التخريجات لأحاديث غفل عنها الشيخ الألباني.

والله المسؤول أن ينفع بهذا العمل، وأن يثيب من كان سبباً في إبرازه أو شارك في إخراجه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق العاشر من جمادى الأولى ١٣٨٠هـ[2]

ابوبكر

---

(١) في الطبعة الأولى، وقد استغنينا عن ذلك بالنقل من المصحف المسجل بالترقيم في طبعة الملك فهد حفظه الله بخط الأستاذ الفاضل عثمان طه ـ بارك الله فيه.

(٢) وقد أعدت النظر في الكتاب سنة ١٤١٧هـ والحمد لله رب العالمين.
وقد تكرم الأخ الدكتور شاهر جمال آغا، المدرس في جامعة دمشق، فنظر في الكتاب، وكانت له ملحوظات مفيدة وضعناها مسبوقة بنجمة (*) ـ جزاه الله خيراً.

ترجمة المؤلف

هو أبو المعالي، محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الألوسي الحسيني، العالم، المؤلف، اللغوي، الأديب، المصلح.

ولد ببغداد سنة ١٢٧٣ هـ في أسرة عريقة معروفة بالعلم والدين.

وتلقى العلم عن أبيه، وعمه أبي البركات نعمان خير الدين الألوسي، والشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلي، والسيد محمد أمين الخراساني الفارسي وغيرهم.

وتقدم في العلوم العقلية والنقلية، ودرس وألف فذاع صيته وقصده الناس من بلدان متعددة. فكان زعيماً من زعماء النهضة، ورائداً من رواد العلم والأدب، وداعياً من دعاة الإصلاح، حارب البدع والخرافات، ودعا إلى نهج السلف الصالح، وهاجم التصوف وطرقه. وكان مثالاً للعالم الجريء المتعفف أيام الدولة العثمانية وفترة الاحتلال الإنكليزي للعراق.

وقد توفي رحمه الله تعالى، في بغداد سنة ١٣٤٢هـ وترك آثاراً كثيرة في الدين واللغة والتاريخ والأدب والعلوم الأخرى منها:

«بلوغ الأرب في أحوال العرب».

و«أخبار بغداد وما جاورها من البلاد».

و«تاريخ نجد».

و«الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية».

و«غاية الأماني في الرد على النبهاني»[١].

---

(١) طبع بغير اسمه، ثم طبع مجدداً باسم الألوسي.

و«الآية الكبرى على ضلال النبهاني في رائيته الصغرى».

و«فصل الخطاب، في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب».

و«الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر».

و«بدائع الإنشاء».

و«الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية».

و«ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة» وهو هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء الكرام.

وكان يحسن الفارسية والتركية، وله بعض الرسائل المترجمة.

وأوسع ما كتب عنه وأفضله كتاب «محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية» للأستاذ محمد بهجة الأثري.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمَدُك يا مبدع الأكوان، ويا خالق الكون والمكان، ويا مسيّر الفلك على حسب ما تقتضيه الحكمة من الدَّوَران؛ ونصلّي ونسلّم على نبيّك «محمّد» الذي سريتَ به من حرم إلى حرم، ورفعته من سماء إلى سماء، حتى أوصلته إلى مقام لا تصل إليه الأذهان، صلّى الله تعالى وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه بدورِ سماء الدراية والهداية وشموس أفلاك العرفان.

أما بعد: فقد شاع في عصرنا قولُ «فيثاغورس»[1] الفيلسوف الشهير في هيئة الأفلاك، ونصره الفلاسفة المتأخرون، بعد أن كان عاطلاً مهجوراً، وهو القول بحركة الأرض اليومية[2] والسنوية حول الشمس، وأنها هي مركز نظامها، وأن الأرض إحدى الكواكب السّيارة، وأنها سابحة في الجوّ، معلقة بسلاسل الجاذبية، وقائمة بها، كسائر الكواكب، لا أنها كما ذهب إليه

---

(١) فيثاغور (Phythagore) حكيم يوناني مشهور وأتباعه يسمون بالفيثاغوريين نسبة إليه. وقد كان لهم آراء في الفلك منها قولهم: بأن الأرض كوكب من الكواكب الدائرة حول النار المركزية، مخالفين بذلك الفكرة السائدة في عصرهم عن الأرض وأنها مركز الكون. ولد فيثاغور في جزيرة ساموس وتوفي فيها نحو (٦٠٠ ق.م).

(٢) * لقد اعتقد أن الأرض مركز المنظومة الشمسية، وأن للأرض حركتان: يومية محورية حول نفسها، وسنوية حول الشمس.
ولقد عرف البابليون في العراق والمصريون هذه الحقيقة قبل فيثاغورث.

«بطليموس»[1] في الأفلاك كالمسامير في الباب، إلى غير ذلك من قواعدها المشهورة وقوانينها المذكورة.

وقد سماها الفلاسفة المتأخرون «الهيئة الجديدة»، لكونها شاعت في العصر المتأخر. وإلّا، فالقول بها متقدّم جداً، فقد رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة في الكتاب والسنّة. على أنها لو خالفت شيئاً من ذلك، لم يلتفت إليها، ولم نؤوّل النصوص لأجلها. والتأويلُ فيهما، ليس من مذاهب السلف الحَرِيّة بالقبول، بل لا بُدَّ أنْ نقول: إنَّ المخالف لهما مشتمل على خللٍ فيه؛ فإن العقل الصريح، لا يخالف النقلَ الصحيحَ، بل كلٌّ منهما يصدّقُ الآخر ويؤيّده.

وٱعلم أن الشريعة الغرّاءَ لم تَرِدْ باستيعاب قواعد العلوم الرياضية، إنّما وردت بما يستوجب سعادةَ المكلَّفين في العاجل والآجل، وبيان ما يتوصّلون به إلى الفوز بالنعيم المقيم، وربما أشارت ـ لهٰذهِ الأغراض ـ إلى ما يستنبط منه بعضُ القواعد الرياضية.

وقد ورد القرآن الكريم ـ في بيان ذلك ـ بما خاطب به العرب، مما يعلمونه من علوم تلقَّوْها خلفاً عن سلف. فقد كانت لهم علوم ذكرناها في الكتاب الذيَ ألفناه في بيان أحوالهم[2]، كما كان لعقلائهم ٱعتناء بمكارم الأخلاق وٱتّصافٌ بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو

---

(١) بطليموس (Ptolémée) من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية، وهو صاحب كتاب «المجسطي» المشهور، وله النظرية البطليموسية التي تقول: بأن الأرض ثابتة، وبأن الفلك يدور حولها، وهي النظرية التي يشير إليها المؤلف.

(٢) هو كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب» وهو كتاب مشهور في ثلاثة مجلدات، ظفر بجائزة أسكار الثاني ملك السويد وطبع ببغداد مرة وبالقاهرة مرتين، وصور في بيروت. انظر كتاب «محمود شكري الألوسي» محاضرات محمد بهجة الأثري على طلبة القسم الأدبي في معهد الدراسات العربية العليا (جامعة الدول العربية) بالقاهرة سنة ١٩٥٨م. (الأثري).

صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل قبيح، وبينت منافع ما ينفع من ذلك ومضارَّ ما يضر منه. فكان من علومها «علم النجوم»[1] وما يختصّ بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وتعرف منازل سير النَّيِّرَيْنِ وما يتعلق بهذا المعنى. وهو معنى مقرر في أثناء القرآن، في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، وقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ [الملك: ٥]، وقولِهِ تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وما أشبهَ ذلك.

ومن علوم العرب: «الأنواءُ»[2] وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، فبيّن الكتاب والسنّة حقّها من باطلها، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم

---

(١) * لقد اهتم العرب قديماً بمتابعة حركة النجوم لما لها من أهمية اجتماعية واقتصادية ولم يكوّنوا علماً بالمعنى الدقيق، لأن التعرف على الكون جاء متأخراً متماشياً مع التقدم العلمي الحديث والمعاصر.

(٢) * الأنواء: تعني حالة الطقس والجو في فترة زمنية محددة، وتقابل المصطلح العلمي Meteorology الذي يهتم بدراسة عناصر المناخ المختلفة (حرارة، أمطار، رياح، أشعة شمسية... إلخ) وساهم العرب في دراسة عناصر الطقس، وظهر هذا العلم في العصر الحديث لأن رصد الجو يحتاج لتقنيات لم تكن معروفة سابقاً.

ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]، أي بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، أي تقولون: «مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا». وفي الحديث الصحيح: «بعد وقوع المطر أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. أما المؤمن، فيقول: أمطرنا الله؛ وأما الكافر، فيقول: مطرنا بِنَوْء كذا»[1]. وفي «المُوَطَّأ»: «إذا نشأت بحرية، ثم تشاءمت، فتلك عينٌ غَدِيقة»[2]. وقال عمر بن الخطاب[3]، رضي الله عنه، للعباس[4] وهو على المنبر والناسُ تحته: كم بقي من نوء الثريّا؟ فقال له العباس: بقي من نوئها كذا وكذا. فمثل هذا مبين للحق من الباطل في أمر الأنواء والأمطار. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩]، إلى كثير من هذا القبيل.

وقد أحببت أن أجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سُوَر القرآن على ترتيب سُوَرها، وأخص منها المشتملة على الأجرام العلوية

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما ـ ن ـ.

(٢) رواه مالك (١/ ١٩٢/ ٥) بلاغاً بدون إسناد ـ ن ـ.

(٣) هو أمير المؤمنين، أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي. صاحب رسول الله ﷺ، وثاني الخلفاء الراشدين، ومضرب المثل في العدل. أسلم قبل الهجرة فأعز الله به الإسلام، وتولى الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه سنة ١١هـ، ففتح الله به الفتوح ووطد به الملك. وقد توفي ـ رضي الله عنه ـ مقتولاً بيد أبي لؤلؤة غلام المغيرة سنة ٢٣هـ.

(٤) هو أبو الفضل، العباس بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي. عم رسول الله ﷺ، وجد الخلفاء العباسيين. ولد سنة ٥١ قبل الهجرة، وأعلن إسلامه عام الفتح، وكان من المقدمين في الجالية والإسلام. وقد توفي رضي الله عنه في المدينة المنورة سنة ٣٢هـ.

والأجرام السفلية، وأذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين، ملتزماً في ذلك طريق الاَختصار، وأصحَّ الأقوال وأصوب الأفكار.

وقد سمّيت ما كتبت في هذا الباب، وما جمعته من لب اللباب:

(ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان)

ومن الله أستمدّ التوفيق؛ نعم المولى ونعم الرفيق.

سورة البقرة

في هذه السورة بعض الآيات المشملة على بيان الأحْرام، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

تفسير هذه الآية:

معنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي[1] كالفراش في صحة القعود والنوم عليها، أنه سبحانه جعل بعضها بارزاً عن الماء، مع أن مقتضى طبعها أن يكون الماء محيطاً بأعلاها، لثقلها، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين، ليتيسَّر التمكن عليها بلا مزيد كلفة. فالتصيير بٱعتبار أنه لما كانت قابلةً لِما عدا ذلك، فكأنها نُقِلت منه. وإن صح ما نقل عن ابن عباس[2]، رضي الله عنه، أن الأرض خلقت قبل السماء غيرَ مَدْحُوَّةٍ، فدُحيت بعد خلقها ومُدَّت، فأمرُ التصيير حينئذٍ ظاهرٌ، إلاّ أن كل الناس غير عالمين به. والصفة يجب أن تكون معلومة للمخاطب، ولا ينافي كُرِيَتَها كونُها فراشاً؛ لأن الكرة إذا عظمت، كان كل قطعة منها كالسطح في ٱفتراشه، كما لا يخفى.

---

(١) * لعله المؤلف يقصد بكلمة **فراشاً** هنا، إضافة لما ذكره من سيطرة التضاريس السهلية والهضابية على التضاريس الجبلية الوعرة، لأنه من وظائف الجبال إيجاد التوازن الحركي والثقلي على سطح الأرض، وتحتل مناطق محددة مرسومة.
وكلمة: ﴿وإذا الأرض مدت﴾ تعطينا معنى الانبساط والاستواء.

(٢) هو الصحابي الجليل أبو العباس عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وحبر الأمة وترجمان القرآن. كان عالماً بالحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر، وله في الصحيحين نحو ١٦٦٠ حديثاً. ولد بمكة سنة ٣ قبل الهجرة، وتوفي في الطائف سنة ٦٨هـ.

وسيأتي إقامة الدلائل على كُرِيَتِها، وبيان ما يعارضها من ظواهر النصوص، وتوجيه ذلك.

وٱختار سبحانه لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على السماوات، موافقة للفظ الأرض، وليس في التصريح بتعددها هنا كثير نفع، ومع هذا يحتمل أن يراد بها مجموع السماوات، وكل طبقة وجهة منها.

و (البناء) في الأصل: مصدر، أُطلق على المبنيّ، بيتاً كان أو قبة أو خِباءً أو طِرافاً، ومنه قولهم: بنى فلانٌ بأهله، أو على أهله، خلافاً للحريري[1]؛ لأنهم كانوا إذا تزوّجوا ضربوا خباءً جديداً، ليدخلوا على العروس فيه.

والمراد بكون السماء بناءً أنّها كالقبة المضروبة، أو أنها كالسقف للأرض. ويقال لسقف البيت: بناء، ورُوِيَ هذا عن ٱبن عباس.

والمراد من السماء في قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ جهةُ العلوّ، أو السحاب. وإرادةُ الفلك المخصوص ـ بناءً على الظواهر ـ غيرُ بعيدةٍ، نظراً إلى قدرة الملك القادر، جلّ جلالُهُ، وسمت عن مدارك العقل أفعاله. إلّا أن الشائع أن الشمس إذا سامتت بعض البحار والبراري، أثارت من البحار بخاراً رطباً، ومن البراري يابساً[2]. فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء الثالثة[3]، تكاثف. فإن لم يكن البرد قوياً، ٱجتمع وتقاطر، لثقله بالتكاثف.

---

(١) في كتابه «درة الغواص» (الأثري).
والحريري هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، البصري، صاحب المقامات المشهورة. كان عالماً باللغة والأدب متقدماً في الكتابة. ومن آثاره «المقامات»، و«درة الغواص في أوهام الخواص»، و«ديوان رسائل»، و«ديوان شعر». ولد قرب البصرة سنة ٤٤٦هـ، وتوفي فيها سنة ٥١٦هـ.

(٢) * يرتفع البخار من المحيطات والبحار واليابسة في ظروف المسامتة أو سواها، ولا ينطلق من اليابسة بخاراً يابساً، فلا يوجد بخار يابس، ولعله يقصد ارتفاع الهواء حرارياً.

(٣) * هذا مصطلح غير مألوف فبخار الماء يتشكل أساساً في الطبقة الدنيا من الجو وتعرف بالطبقة المضطربة أو Troposphere.

فالمجتمع سحاب، والمتقاطر مطر. وإن كان البرد قوياً، كان ثلجاً وبَرَداً، وقد لا ينعقد، ويسمى ضَباباً.

وعلى هذا يراد بالنزول من السماء نشوؤه من أسباب سماوية[1]، وتأثيرات أثيرية، فهي مبدأ مجازيّ له. على أنّ مَنِ انجاب عن عين بصيرته سحاب الجهل، رأى أن ما في هٰذا العالم السفلي نازل من[2] عرش الإرادة، وسماء القدرة، بحسب ما تقتضيه الحكمة، بواسطة أو بغير واسطة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر][3] بل، مَنْ علم أنّ الله سبحانه في السماء، على المعنى الذي أراده وبالوصف الذي يليق به مع التنزيه اللائق بجلال ذاته تعالى، يمثل بقوله: إنَّ ما في العالمين من تلك السماء، ونسبة نزوله إلى غيرها أحياناً، لاعتبارات ظاهرة، وهي راجعة إليه في الآخرة.

❁❁

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

تفسير هذه الآية:

﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي علا إليها وارتفع من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تحديد،

---

(١) * للهطول مسببات كونية (أشعة الشمس) وأرضية (السطوح المائية والأرضية والجبال... إلخ). تتفاعل مع بعضها حسب قوانين معينة أوجدها الله.

(٢) عن أمر الرحمن الذي على العرش استوى، وله الأسماء والصفات العلا ـ جل شأنه.

(٣) * إن الواقع يؤيد كلام الله الخبير، فكمية التبخر والهطول السنوي محدودة ومتوازنة، وتعادل تقريباً نصف ملبار كم^3 من الماء، فالمحيطات تفقد من الماء بقدر ما تكسب، فتحافظ على كتلها المائية، وتتجدد مياهها تبعاً لذلك كل (٢٥٠٠) سنة تقريباً، ولولا ذلك لأسنت المياه مع الزمن.

قاله الربيع[1]. أو قصد إليها بإرادته قصداً سويًا، بلا صارف يَلْويه، ولا عاطف يَثْنِيه، من قولهم: استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً، من غير أن يلوي على شيء، قاله الفرّاء[2].

والمراد بـ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ الأجرام العلوية، أو جهة العلوّ.

والناس مختلفون في خلق السماء وما فيها، والأرضِ وما فيها، باعتبار التقدم والتأخّر، لتعارُضِ الظواهر في ذلك.

فذهب بعضهم إلى تقدم خلق السماوات؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات][3].

---

(١) هو الربيع بن أنس من بكر بن وائل من أنفسهم ـ كما يقول ابن سعد في الطبقات ـ ومن سكان البصرة. لقي بعض أصحاب الرسول ﷺ، وتوفي بإحدى قرى مرو في خلافة أبي جعفر المنصور.

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين في النحو واللغة والأدب. ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ، وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ. له مصنفات متعددة منها: «معاني القرآن».

(٣) * من التعارف عليه أن الأرض كانت غير محددة الشكل ومع مرور (٢٠٠) مل. سنة تقريباً، أخذت شكلها الكروي. وكلمة دحاها لها معنيان: بسط الشيء وحشوه كذلك. وتطور الأرض يشير إلى العمليتين بآن واحد، وخروج الماء جاء بعد حشو وتكوير الأرض (بحوالي مليار سنة) وظهور المرعى بعد ذلك بكثير، لأن الحياة النباتية والحيوانية، المتطورة لا يزيد عمرها عن مليار سنة من عمر الأرض على أكبر تقدير.

ومن المعروف الآن أن الكون الذي يحيط بنا كان قبل (١٨) مليار سنة تقريباً، سديماً غبارياً دخانياً (سحابة أولية) انفجر انفجاراً مذهلاً قبل (١٥) مليار سنة تقريباً، وأخذ بالتوسع والانتشار السريع جداً، وفيما بعد بدأ ظهور الشمس والكواكب الشمسية ومنها الأرض، ويقدر عمر الأرض بحوالي (٤،٧) مليار سنة. ويجب أن نفرق هنا بين مفهوم السماوات السبع، ولا أحد يمكن تحديد زمن تكوينها والسماء التي تعلونا (من حيث العلو) التي هي الكون الذي يحيط بنا. والذي قدر عمره بـ (١٨) مليار سنة كما أسلفت.

وذهب آخرون إلى تقدّم خلق الأرض، لقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...﴾[1] [فصلت وتسمى حم السجدة].

وجمع بعضهم فقال: إنّ قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بدل، أو عطف بيان لقوله: ﴿دَحَاهَا﴾ أي بسطها، مبيّن للمراد منه. فيكون تأخّرها ليس بمعنى تأخّر ذاتها، بل بمعنى تأخّر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه، بل خلقُ التمتّع والانتفاع به. فإنّ البَعْدية كما تكون باعتبار نفس الشيء، تكون باعتبار جزئه الأخير وقيده المذكور، كما لو قلتَ: بعثتُ إليك رسولاً، ثم كنتَ بعثت فلاناً لينظر ما يبلغه. فبعثُ الثاني وإن تقدم، لكنْ ما بُعث لأجله متأخر، فجُعل نفسهُ متأخراً.

وما رواه الحاكم[2] والبيهقيّ[3] عن ابن عباس في التوفيق بين الآيتين،

---

(١) * لاحظ يا أخي:
٢ - يومان لخلق الأرض.
٤ - أربعة أيام لتقدير الأقوات.
٢ - يومان لخلق السماوات السبع.
٨ أيام المجموع
ألا يعارض هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿... خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؟.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن حمدويه بن نعيم الضبي، النيسابوري المعروف بالحاكم، أحد أئمة الحديث المعدودين. ولد في نيسابور سنة ٣٢١هـ، وتوفي سنة ٤٠٥هـ. ومن أشهر مؤلفاته «المستدرك على الصحيحين».

(٣) البيهقي: هو أحمد بن الحسين البيهقي أحد أئمة الحديث. ولد في خسرو جرد بنيسابور سنة ٣٨٤هـ، وتوفي في نيسابور سنة ٤٥٨هـ بعد أن طوّف ببغداد والكوفة ومكة وغيرها. له مؤلفات كثيرة أهمها: «السنن الكبرى» في عشر مجلدات ضخمة، وهو أوسع السنن المعروفة.

يشير إلى هذا. ولا يعارضه ما رواه ابن جرير[1] وغيره، وصححوه عنه أيضاً، أن اليهود أتت النبيَّ ﷺ، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال:

«خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يومَ الثلاثاء، وخلق يومَ الأربعاء الشجر والمدائن والعُمران والخراب، فهذه أربعة، فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت]، وخلق يومَ الخميس السماء، وخلق يومَ الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة»[2].

وإنما قلنا (ولا يعارضه) إلى آخر، لجواز أن يحمل على أنه خلق مادةَ ذلك وأصولهَ؛ إذْ لا يتصوَّر المدائن والعمران والخراب قبل، فعطفه عليه قرينة لذلك.

واستشكل الرازي[3] تأخّر التدحية عن خلق السماء، وقال: إن الأرض جسم عظيم، فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية. فإذا كانت التدحية متأخرة، كان خلقها أيضاً متأخراً.

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام المفسر المؤرخ الثقة. ولد في طبرستان سنة ٢٢٤هـ، وتوفي في بغداد سنة ٣١٠هـ. ومن آثاره «أخبار الرسل والملوك» المعروف بـ«تاريخ الطبري»، و«جامع البيان في تفسير القرآن» المعروف بـ«تفسير الطبري» أيضاً.

(٢) في الأحاديث ذكر أيام الخلق، وفيها اختلاف كثير. وليس تحديد الأيام على ما يظن. وقد دخلت الأقوال الإسرائيليات في تفصيلات لا تثبت في صحاح الأحاديث. وانظر «صحيح الجامع الصغير وزيادته» ٣٢٣٥.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي القرشي. كان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية وعلوم الأوائل، إماماً في التفسير، وله مؤلفات كثيرة في التوحيد والأصول والعربية والكلام والفلسفة والعلوم والطب. أصله من طبرستان وولد في الري ـ وإليها نسبته ـ سنة ٥٤٤هـ، وتوفي في هراة سنة ٦٠٦هـ، ومن أهم آثاره تفسيره الكبير.

وهذا غفلة منه؛ لأن من يقول بتأخر دَحْوِها عن خلقها، لا يقول بعظمها ٱبتداءً، بل يقول: إنها في أول الخلق كانت كهيئة الفِهْر[1]، ثم دحيت، فيتحقق الٱنفكاك، ويصح تأخّر دحوها عن خلقها.

وقوله: إن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوّةً، لا يخفى دفعه بناءً على أن المراد بذلك خلق الموادّ والأصول، لا خلق الأشياء فيها كما هو اليوم.

وقال بعض المحققين: اختلف المفسرون في أنّ خلق السماء مقدَّمٌ على خلق الأرض أو مؤخر نقل الإمام الواحديّ[2] عن مُقاتلٍ [3] الأوّل، وٱختاره المحققون، ولم يختلفوا في أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع، بل ٱتفقوا عليه.

فحينئذٍ يجعل (الخلق) في الآية الكريمة بمعنى التقدير لا الإيجاد، أو بمعناه ويقدر الإرادة، ويكون المعنى: أراد خلق ما في الأرض جميعاً لكم، على حدِّ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، و﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الإسراء: ٤٥]، ولا يخالفه قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، فإنّ المتقدم على خلق السماء إنما هو تقدير الأرض وجميع ما فيها، أو إرادة ايجادها، والمتأخر عن خلق السماء إيجاد الأرض وجميع ما فيها، فلا إشْكالَ.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فعلى تقدير الإرادة والمعنى أراد خلق الأرض.

---

(١) الحجر الذي يملأ الكف مع شبه الاستدارة.

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية، الواحدي، كان عالماً بالأدب إماماً في التأويل. من آثاره: «أسباب النزول» و«البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز» في التفسير، و«شرح ديوان المتنبي». ولد في نيسابور، وتوفي فيها سنة ٤٦٨هـ.

(٣) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي أحد أعلام المفسرين. وقد توفي في البصرة سنة ١٥٠هـ. وله مؤلفات في التفسير، وبعض علوم القرآن، إلا أنه كان متروك الحديث.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [فصلت: ١٠] ينبغي أن يكون بمعنى أراد أن يجعل. ويؤيد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، فإن الظاهر أن المراد أتينا في الوجود. ولو كانت الأرض موجودة سابقاً، لما صحّ هذا.

فكأنه سبحانه قال: أإنكم لتكفرون بالذي أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام، ثم قصد إلى السماء، فتعلّقت إرادته بإيجاد السماء والأرض، فأطاعا بأمر التكوين، فأوجد سبع سماوات في يومين، وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام.

بقي ها هنا بيان النكتة في تغيير الأسلوب، حيث قدم في الظاهر ها هنا وفي (حَم السجدة) خلقَ الأرض وما فيها على الخلق السماوات، وعكَسَ في (النازعات) ولعلّ ذلك لأنّ المقام في الأوّلين مقام الامتنان، فمقتضاه تقديم ما هو نعمة، نظراً إلى المخاطَبين. فكأنه سبحانه وتعالى وهو الذي دبر أمركم قبل خلق السماء، ثم خلق السماء. والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة، فمقتضاه تقديم ما هو أدلّ على كمالها.

هذا، والذي يفهم من بعض عبارات القوم أن المحدد، ويقال له سماء أيضاً، مخلوق قبل الأرض وما فيها، وأن الأرض نفسها خلقت بعدُ. ثم بعد خلقها خلقت السماوات السبع، ثم بعد السبع خلق ما في الأرض من معادنَ ونبات. ثم ظهر عالم الحيوان. ثم عالم الإنسان.

فمعنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٩] حينئذٍ، قدره؛ أو أراد إيجاده، أو أوجد موادّه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: ٣] إلى آخره في الآية الأخرى، على نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وخلق الأرض﴾ فيها على ظاهره، ولا يأباه قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] إلى

آخره، لجواز حمله على معنى ٱئتيا بما خلقت فيكما من التأثير والتأثّر، وإبراز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة، أو إتيان السماء حدوثها، و إتيان الأرض أن تصير مدحوّةً، أو لتأتِ كل منكما الأخرى في حدوث ما أُريد توليده منكما.

وبعد هذا كله، لا يخلو البحث من صعوبة، وما زال الناس يستصعبونه من عهد الصحابة إلى الآن. وسنعود إليه مرةً أُخرى إن شاء الله تعالى.

ومعنى ﴿سوّاهن﴾: أتمّهنّ، وقوّمهنّ، وخلقهنّ ٱبتداءً مصوناتٍ عن العوج والفطور، لا أنه سبحانه وتعالى سوّاهنّ بعد أن لم يكن كذلك. فهو على حد قولهم: «ضيق فم البئر ووسع الدار».

لا يقال: إن أرباب الأرصاد المتقدمين أثبتوا تسعة أفلاك، وهل هي إلا سماوات؟ لأنا نقول: هم لا يزالون شاكّين في النقصان والزيادة. فإن ما وجدوه من الحركات يمكن ضبطها بثمانية وسبعة، بل بواحد. وبعضهم أثبتوا بين فلك الثوابت والأطلس كرةً لضبط الميل الكُلّيّ.

وقال بعض محققيهم: لم يتبين لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة، أو كرات منطوية بعضها على بعض.

وأطال الإمام الرازي الكلام في ذلك.

على أنه إن صح ما شاع، فليس في الآية ما يدل على نفي الزوائد بناءً على ما ٱختاره الرازي من أن مفهوم العدد ليس بحجة.

وكلام البيضاوي[1] في تفسيره، يشير إليه خلافاً لما في «منهاجه» الموافق

---

(١) هو العلامة المفسر عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي. صاحب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» المعروف بتفسير البيضاوي. وله مؤلفات غيره في التوحيد والأصول والعربية والتاريخ. ولد بفارس قرب شيراز، وتوفي في تبريز سنة ٦٨٥هـ.

لما عليه الإمام الشافعي[1]، ونقله عنه الغزالي[2] في «المنخول».

وذكر عبد الحكيم السيالكوتي الهندي[3] أن الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد، والخلاف في ذلك مشهور.

وإذا قلنا بكُرِيَّةِ العرش والكرسيّ، لم يبق كلام.

وضمير ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] للسماء إن فسرت بالأجرام.

وأما ما ذهب إليه متأخرو الفلاسفة، فلا سماء عندهم، بل الأجرام العلوية قائمة بالجاذبية؛ فإن الشمس وسائر الكواكب السيارات عليها، بل وجميع الثوابت ليست مركوزة في جسم من الأجسام، والآيات القرآنية وإن لم يكن فيها ما يدل على خلاف ما ذكر في الكواكب، بل ربما كان فيها ما يدل على ما يؤيد مذهب المتأخرين. فإن النصوص تشعر بأن ما نشاهده من الحركات، ليست بالأجرام اشتملت على الكواكب، مثل قوله سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

---

(١) هو محمد بن إدريس الشافعي، الهاشمي، الإمام في اللغة والفقه والحديث، ورأس المذهب المنسوب إليه. ولد في غزة سنة ١٥٠هـ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤هـ، وله كتب عديدة أشهرها «الرسالة» في الأصول، و«الأم» في الفقه.

(٢) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بحجة الإسلام. ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥. وله عدد كبير من المؤلفات في العقيدة والفقه والأصول والفلسفة والتصوف.. ومن أشهر هذه المؤلفات: كتابه «إحياء علوم الدين»، وقد خرج أحاديثه الحافظ العراقي.

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي (نسبة إلى سيالكوت من أعمال لاهور). له آثار في العقيدة والتفسير والمنطق والعربية تدل على علمه وفضله منها: «عقائد السيالكوتي» و«حاشية على تفسير البيضاوي» و«حاشية على الجرجاني» و«على القطب، وعلى الشمسية» في المنطق و«حاشية على المطول» في البلاغة. وقد توفي سنة ١٠٦٧هـ.

نعم المناقضة والمخالفة بين مذهب المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب، فإن المتقدمين قالوا: إن العالم الجسماني كرة منضدة من ثلاث عشرةَ كرةً، ومركز العالم مركز كرة الأرض. غير أن المتأخرين لم يثبتوا من السماوات سبعاً، ولا أكثر من ذلك ولا أنقص. والمتشرعون منهم قالوا: المراد من السماوات السبع أصناف أجرام الكواكب، فإنهم جعلوها على سبعة أصناف في المقدار، وذلك هو الضلال البعيد، فلا يلزم أن يكون كل مالم تصل إليه أيدي أفكارهم هو في حيّز العدم ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يُونس: ٣٩]. فإن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، كلهم أخبروا بوجود السماوات في هذا الفضاء، الذي ليس له مبدأ ولا انتهاء. وهذا خاتمهم، صلوات الله عليه، قد ذكر ما ذكر مما رأى في معراجه في السماوات، واستفتاحه لها بواسطة جبريل: كل ذلك يبطل تأويل من أوَّلَ.

وسيأتي في ذلك كلام مفصل، وما ذكرناه هنا كافٍ في المقام، والله وليُّ التوفيق.

❁❁

ومنها قوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ . . .﴾[1] [البقرة: ١٨٩].

---

(١) * الهلال مؤشر لبدء شهر جديد، فهو مؤشر زمني أساساً كما هو مبين في الآية الكريمة، ثم طور إلى مؤشر تقويمي حياتي من قبل علماء الفلك والطبيعة.
وسؤال معاذ بن جبل ينطوي على معرفة تفسير ظاهرة أطوار القمر، وتمثل الأوضاع المختلفة للجزء المرئي من القمر خلال الشهر القمري والأطوار أربعة: ١ - الهلال الجديد والقمر يقع فيه بين الأرض والشمس، ٢ - التربيعان: الأول والأخير ويشكل فيهما مركز الأرض والقمر والشمس زاوية قائمة ونشاهد نصف القمر. ٣ - البدر وفيها يقع القمر كاملاً أمام أشعة الشمس (الجانب المرئي).

ذكر أهل التفسير: أن معاذ بن جبل[1] وثعلبة بن غُنم[2]، قالا: يا رسولَ اللهِ! ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحدة؟ فنزلت.

والسؤال يحتمل أن يكون عن الغاية والحكمة، وأن يكون عن السبب والعلة، ولا نصَّ في الآية والخبر على أحدهما.

أما الملفوظ من الآية، فظاهر. وأما المحذوف، فيحتمل أن يقدر: ما سبب اختلافها، وأن يقدر: ما حكمته.

وهي وإن كانت في الظاهر سؤالاً عن التعدّد، إلا أنها في الحقيقة متضمنة للسؤال عن اختلاف التشكلات النورية؛ لأن التعدد يتبع اختلافها، إذْ لو كان الهلال على شكل واحد، لا يحصل التعدد كما لا يخفى.

وأما الخبر، فلأنّ (ما) فيه يسأل بها عن الجنس وحقيقته. فالمسؤول [عنه] حينئذٍ حقيقة أمر الهلال وشأنه حالَ اختلاف تشكلاته النورية، ثم عوده إلى ما كان عليه. وذلك الأمر المسؤول عن حقيقته، يحتمل ذينك الأمرين بلا ريب.

---

(١) هو أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي. صاحب رسول الله ﷺ، ومن أعلم المسلمين بالحلال والحرام. وأحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول. ولد سنة ٢٠ق.هـ، وتوفي سنة ١٨هـ بناحية الأردن، ودفن في الغور.

(٢) ثعلبة بن غُنمٌ كذا في الأصل، والصواب ثعلبة بن غنمة ـ بفتح العين والنون، وغنم أحد أجداده لا والده ـ كما في «الإصابة» لابن حجر و«الاستيعاب» لابن عبد البر. وهو أنصاري خزرجي شهد بدراً، وقتل شهيداً يوم الخندق أو العقبة على خلاف. وقد ذكر ابن الكلبي أنه ممن سأل عن الهلال كيف يبدو صغيراً ثم يكبر، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فعلى الأول يكون الجواب بقوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] مطابقاً مبيناً للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام، المذكرة لنعمة الله تعالى ومَزيد رأفته. وهي أن تكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدينية، ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم، ومعالم للعبادات يعرف بها أوقاتها كالصيام والإفطار، وخصوصاً الحج، فإن الوقت مراعى فيه أداءً وقضاءً.

ولو كان الهلال مدوّراً كالشمس، أو ملازماً حالةً واحدة، لم يكد يتيسر التوقيت به، ولم يذكر صلى الله تعالى عليه وسلّم الحكمةَ الباطنة لذلك، مثل كون اختلاف تشكلاته سبباً عادياً أو جعلياً، لاختلاف أحوال المواليد العنصرية كما بُيّن في محله؛ لأنه مما لم يطلع عليه كل أحد.

وعلى الثاني يكون من الأسلوب الحكيم، ويسمى: القول بالموجب. وهو: تلقّي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله واختاره السكّاكي[1] وجماعة. فيكون في هذا الجواب إشارة إلى أن الأولى، على تقدير وقوع السؤال، أن يسألوا عن الحكمة، لا عن السبب؛ لأنه لا يتعلق به صلاح معاشهم ومَعادهم، والنبيّ - ﷺ - إنما بُعث لبيان ذلك.

وبعض علماء الهيئة اليونانية قال: ليسوا ممن يطلع على دقائق علم الهيئة الموقوفة على الأرصاد والأدلة الفلسفية.

وهذا وهم؛ لأن ذلك على فرض تسليمه في حق أولئك المَشّائين في ركاب النبوة، والمرتاضين في رواق الفتوّة، والفائزين بإشراف الأنوار، والمطلعين بأرصاد قلوبهم على دقائق الأسرار، وإن لم يكن نقصاً من قدرهم

---

(١) هو أبو يعقوب، سراج الدين، يوسف بن أبي بكر، السكاكي، عالم باللغة والأدب. ولد في خوارزم سنة ٥٥٥هـ، وتوفي فيها سنة ٦٢٦هـ. ومن آثاره «مفتاح العلوم».

إلا أنه يدلّ على أن سبب الاختلاف ما بيّنَ في علم الهيئة من بُعد القمر عن الشمس وقربه إليها.

وهو باطل عند أهل الشريعة، فإنه مبني على أمور لم يثبت جزماً شيء منها. غايةُ الأمر أن الفلاسفة الأوَل تخيلوها موافقة. فما أبدعه الحكيم المطلق كما يشير إليه كلام الشيخ محيي الدين[1] ـ رحمه الله ـ في «فتوحاته»، مما ينادي على أن ما ذهبوا إليه مجرد تخيل، لا تأباه الحكمة وليس مطابقاً لما في الأمر أن المتأخرين ممن انتظم في سلك الفلاسفة، كهرشل الحكيم[2] وأتباعه أصحاب الرصد والزيج الجديد، تخيلوا خلاف ما ذهب إليه الأولون في أمر الهيئة. وقالوا: بأن الشمس مركز، والأرض وكذا النجوم دائرة حولها، وبنوا حكم الكسوف والخسوف ونحوه على ذلك، وبرهنوا عليه، وردّوا مخالفيه، ولم يتخلف شيء من أحكامهم في هذا الباب، بل يقع بحسب ما يقع ما يقوله الأولون مبنياً على زعمهم.

فحيث اتفقت الأحكام مع اختلاف المَبْنَيَيْنِ وتضادّ المنشأيْن وردّ أحد الزّعمَيْنِ بالآخر، ارتفع الوثوق بكلا المذهبين، ووجب الرجوع إلى العلم المقتبس من مشكاة الرسالة، والمنقدح من أنوار شمس السيادة والبسالة، والاعتمادُ على ما قاله الشارع الأعظم صلّى الله تعالى عليه وسلّم، بعدَ إمعان النظر فيه، وحمله على أحسن معانيه!

وإذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل، وبين

---

(١) هو أبو بكر محمد بن علي، المعروف بمحيي الدين ابن عربي، والملقب بالشيخ الأكبر. ولد بالأندلس سنة ٥٦٠هـ، واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨هـ، وهو ـ كما يقول عنه الذهبي ـ قدوة القائلين بوحدة الوجود. وله نحو (٤٠٠) كتاب ورسالة فيها كثير من الضلال والشطحات، ومن أشهرها: «الفتوحات المكية» وقد طبعت مرتين في أربعة مجلدات كبيرة.

(٢) وليم هرشل (Hershell) هو العالم الفلكي الإنكليزي الذي اكتشف (أورانوس» وتوابعه، وتوابع «زحل». ولد سنة ١٧٣٨م، ومات سنة ١٨٢٢م.

ما يقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء، فلا بأس به، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين.

وإذا لم يكن ذلك، فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع، وتنزلّت به أملاك الحق.

وسنتكلم فيما يتعلق بأحكام القمر فيما يناسبها من الآيات الآتية إن شاء الله تعالى.

❁❁

ومنها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

تفسير هذه الآية:

(الكرسي): جسم بين يدي العرش محيط بالسماوات والأرض. وقد أخرج جرير[1] وابن المنذر[2] عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال: «لو أنّ السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن ثم وصلن، بعضهن إلى بعض، ما كنَّ في سعَتَه ـ أي الكرسي ـ إلا بمنزلة الحلقة بالمفازة».

وهو غير العرش كما يدل عليه ما أخرجه ابن جرير عن أبي ذَرّ[3] أنه سأل النبي، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، عن الكرسي، فقال: «يا أبا ذَرّ، ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض

---

(١) هو ـ على الأرجح ـ جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازي الضبي. وكان محدثاً ثقة يرحل إليه. ولد في الري سنة ١١٠هـ، وتوفي فيها سنة ١٨٨هـ.

(٢) هو أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري، حافظ فقيه مجتهد. ولد سنة ٢٤٢هـ، وتوفي سنة ٣١٩هـ. ومن مؤلفاته: «تفسير القرآن» و«الأوسط في السنن» و«الإجماع» و«الاختلاف» و«المبسوط» في الفقه.

(٣) هو أبو ذرّ جندب بن جنادة الغفاري، صاحب رسول الله ﷺ وأحد السابقين الأولين للإسلام. توفي في الرّبذة ـ إحدى قرى المدينة ـ سنة ٣٢هـ في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[1].

وعن ابن عباس، قال: سُئل النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم، عن قوله تعالى: «وَسِع كُرْسِيُّهُ السّماوات والأرض». قال: «﴿كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره أحد». وقيل: هو العرش نفسه، ونُسب ذلك إلى الحسن[2]. وقيل: قدرة الله تعالى وقيل: تدبيره. وقيل: ملك من ملائكته. وقيل: هو مجاز عن العلم، من تسمية الشيء بمكانه؛ لأن الكرسي مكان العالم الذي فيه العلم، فيكون مكاناً للعلم بتبعيته، لأن العرض يتبع المحل في التحّيز، حتى ذهبوا إلى أنه معنى قيام العرض بالمحل، وحُكي ذلك عن ابن عباس. وقيل: عن الملك، أخذاً من كرسي الملك وقيل: أصل الكرسي، ما يجلس عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد. والكلام مسوق على سبيل التمثيل لعظمته ـ تعالى شأنه ـ وسَعةِ سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبةً. ففي الكلام ٱستعارة تمثيلية، وليس ثمة كرسي ولا قاعد ولا قعود. هذا الذي ٱختاره الجم الغفير من الخلف، فراراً من توهم التجسيم، وحملوا الأحاديث التي ظاهرها حمل الكرسي على الجسم المحيط، على مثل ذلك، ولا سيما الأحاديث التي فيها ذكر القدم كما قدمنا، وكالحديث الذي أخرجه البيهقي وغيره عن أبي موسى الأشعري[3]:

---

(١) رواه ابن جرير، ومحمد بن جعفر بن أبي شيبة، والبيهقي في «الأسماء والصفات» من طرق عن أبي ذر مرفوعاً، وهو حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة في «العرش» والحاكم في «المستدرك» بسند صحيح موقوفاً، ورواه الضياء في «الأحاديث المختارة»، مرفوعاً وهو غلط كما قال ابن كثير ـ ن ـ.

(٢) هو التابعي الجليل، أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، الإمام الزاهد الكريم الشجاع البليغ. ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ. وقد حفظت لنا الكتب كثيراً من أخباره وكلماته السائرة.

(٣) هو أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري، القحطاني، صاحب رسول الله ﷺ، وأحد ولاة عمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، وأحد الحكمين في صفين. ولد باليمن، وتوفي في الكوفة سنة ٤٤هـ.

«الكرسيّ موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرحل الجديد إذا ركب عليه من يثقله، ما يفضل منه أربع أصابع»[1].

وأنت تعلم أن ذلك وأمثاله، ليس بالداعي القوي لنفي الكرسي بالكلية فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة، وتوهم التجسيم لا يُعْبَأ به، وإلاّ لزم نفي الكثير من الصفات، وهو بمعزل عن اتّباع الشارع والتسليم له.

وأكثر السلف الصالح، جعلوا ذلك من المتشابه الذي لا يحيطون به علماً، وفوضوا علمه إلى الله تعالى، مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه.

والقائلون بالظاهر من الصوفية، لم يشكل عليهم شيء من أمثال ذلك. وقد ذكر بعض العارفين منهم: أن (الكرسي) عبارة عن تجلّي جملة الصفات الفعلية، فهو مظهر إلّهي، ومحل نفوذ الأمر والنهي والإيجاد والإعلام المعبر عنهما بالقدمين. وقد وسع السماوات والأرض وسع وجود عينيّ، ووسع حكمي؛ لأن وجودهما المقيد من آثار الصفات الفعلية، الذي هو مظهر لها. وليست القدمان في الأحاديث عبارة عن قدمي الرجلين ومحل النعلين، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً، ولا الأطيط عبارة عما تسمعه وتفهمه في الشاهد، بل هو إن لم تفوض علمه إلى العليم الخبير إشارة إلى بروز الأشياء المتضادّة أو اجتماعها في ذلك المظهر الذي هو منشأ التفصيل والإبهام، ومحل الإيجاد والإعدام، ومركز الضر والنفع والتفريق والجمع. ومعنى «ما يفضل

---

(١) أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في «العرش» (ق ١١٤/ ١-٢). والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٠) من طريق عمارة بن عمير عن أبي موسى موقوفاً عليه به، دون قوله: «الجديد، إذا ركب...». وأخرجه الخطيب في تاريخه (٨/ ٥٢) من طريق عبدالله بن خليفة مرفوعاً مع الزيادة إلا أنه قال: «إلا قدر...». ورواه أبو يعلى والبزار عن ابن خليفة هذا عن عمر مرفوعاً. وقال الحافظ ابن كثير: «عبدالله بن خليفة، وليس بذاك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر، وعندي في صحته نظر» ـ ن ـ.

منه أربع أصابع» ـ إن كان الضمير راجعاً إلى الرجل ظاهر. وإن كان راجعاً إلى الكرسي، فهو إشارة إلى وجود حضرات هي مظاهر لبعض الأسماء، لم تبرز إلى عالم الحسّ، ولم يمكن أن يراها إلا من ولد مرتين. وليس المراد من الأصابع الأربع ما تعرفه من نفسك.

وللصوفية في هذا المقام كلام غير هذا، ولعلنا نشير إلى بعض منه إن شاء الله تعالى.

وأنا أقول غيرَ مبالٍ بجهول: إن غالب هذه الأقوال ليست برطب إذا عدت ولا يبس، والمعوَّل عليه ما أراد الله تعالى ورسوله بظاهر كلامهما ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران][1].

(١) وإن هذه الأسطر الثلاث الأخيرة، هي خلاصة البحث فيما نقل عن تلك الأقوال. ونحن نسلم لله سبحانه بكل ما أخبر به من صفات.

سُورة آل عمران

في هذه السورة قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

هذه الآية كثيراً ما يصدر مصنفو علم الهيئة بها كتبهم، ظناً منهم أنها تنوّه بفنهم، وتحث على الاشتغال به.

وللرازي في تفسيرها كلام يوضح ما قلناه.

وقال غيره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي في اتّحادهما وإنشائهما على ما هما عليه من العجائب والبدائع، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1] أي تعاقبهما ومجيء كل منهما خلف الآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها، التابعَيْن لسباحتها في بحر قدرته سبحانه بحسب إرادته.

وكون ذلك تابعاً لحركة السماوات وسكون الأرض، مخالف لِما ذهب إليه جمهور أهل السنة من المحدثين وغيرهم: من سكون السماوات، وتحرك النجوم أنفسها بتقدير الله تعالى العليم. وهو موافق ـ من بعض الوجوه ـ لما ذهب إليه متأخرو الفلاسفة من أن مركز السيارات هو الشمس.

---

(١) * بسبب كروية الأرض وميل محورها يتباين طولي الليل والنهار فصلياً، إذ ترى أن النهار أطول من الليل صيفاً في النصف الشمالي للأرض، ويزداد طولاً كلما اقتربنا من مركز القطب الشمالي إلى أن ينعدم الليل في الانقلاب الصيفي. بينما نرى خلاف ذلك في النصف الجنوبي حيث الليل الدامس. وتتغير هذه اللوحة ما بين نصفي الكرة الأرضية في كل من الشتاء والصيف.

وقال الشيخ محيي الدين ابن عربي: إن الله تعالى جعل هذه السماوات ساكنة، وخلق فيها نجوماً تسبح بها، وجعل لها في سباحتها حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص، وجعلها تسير في جرم السماء الذي هو مساحتها، فتخرق الهواء الماسّ[1] لها، فيحدث بسيرها أصوات ونغمات مطربة، لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الأفلاك الحادثة مع قطع الكواكب المسافات السماوية.

وجعل أصحاب علم الهيئة للأفلاك ترتيباً ممكناً في حكم العقل، وجعلوا الكواكب فيه كالشامات على سطح الجسم.

وكل ما قالوه يعطيه ميزان حركاتها، وإن الله تعالى لو فعل ذلك كما ذكروه، لكان السيرُ السيرَ بعينه. ولذلك يصيبون في علم الكسوفات ونحوه.

وقالوا: إن السماوات كالأكر، وإن الأرض في جوفها. وذلك كله ترتيب وضعي يجوز في الإمكان غيره. وهم مصيبون في الأوزان، مخطئون في أن الأمر كما رتبوه.

قال: فليس الأمر إلاّ ما ذكرناه شهوداً. انتهى

ويؤيد دعوى: أنه يجوز في الإمكان غيره، ما ذهب إليه أصحاب الزيج الجديد: من أن الشمس ساكنة[2]، لا تتحرك أصلاً، وأنها مركز العالم[3]، وأن الأرض وكذا سائر السيارات والثوابت تتحرك عليها. وأقاموا على ذلك الأدلة والبراهين بزعمهم، وبنوا عليه الكسوف والخسوف ونحوهما، ولم يتخلف شيء من ذلك.

---

(١) * لا يوجد علمياً ما يؤيد هذا الرأي، والكواكب في سمائنا المرئية تسير في فراغ هوائي مقارنة مع جو الأرض.

(٢) * الشمس تدور مكانياً حول محورها.

(٣) * الشمس ليست مركزاً للعالم، وإنما هي جزء من مجرتنا المرتبطة بالمجرات الأخرى.

فهذا يشعر بأنه لا قطعَ فيما ذهب إليه أصحاب الهيئة.

ويحتمل أن يراد بـ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تفاوتهما بٱزدياد كل منهما بانتقاص الآخر، وانتقاصه بازدياد بٱختلاف حالة الشمس بالنسبة إلينا قرباً وبعداً بحسب الأزمنة. أو في ٱختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة: إما في الطول والقصر، فإن البلاد القريبة من قطب الشمال: أيامُها الصيفية أطول، ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها.

وإما في أنفسهما، فإن كُريةَ الأرض تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلاً، وفي مقابله نهاراً، وفي بعضها صباحاً، وفي بعضها ظهراً أو عصراً، أو غير ذلك.

وهذا مما لا شبهة فيه عند كثير من الناس، وليس بالبعيد. بل ٱختلاف الأوقات في الأماكن مشاهد محسوس، لا يختلف فيه ٱثنان.

إلاّ أن في كرية الأرض ٱختلافاً، فقد ذكر الشيخ محيي الدين: أن الله تعالى بعد أن خلق الفلك المكوكب في جوف الأطلس، خلق الأرض سبع[1] طبقات، وجعل كل أرض أصغر من الأخرى، ليكون على كل أرض قبة سماء. فلما خلقها قدر فيها أقواتها، وٱكتسى الهواء صورة البخار الذي هو الدخان، فتق ذلك الدخانَ سبع سماواتٍ طِباقاً وأجساماً شفافة، وجعلها على الأرضين كالقباب على كل أرض سماء أطرافها عليها نصف كرة، وكرة الأرض لها كالبساط، فهي مدحية، دحاها من أجل السماء أن تكون عليها،

---

(١) * لقد تم التحقق ـ استناداً إلى معطيات الأمواج الاهتزازية الاصطناعية والزلزالية ـ من وجود ثلاث طبقات أساسية في الأرض وهي من الأعلى إلى الأسفل: ١ - القشرة الأرضية الصخرية. ٢ - طبقة الرداء mantle السميكة (قرابة ٢٨٠٠ كم) ٣ - طبقة النواة (أكثر من ٣٠٠٠ كم). وتقسم القشرة إلى قشرتين: قارية غرانيتية ومحيطية بازلتية الخصائص. وتقسم طبقة الرداء إلى ثلاث طبقات. والنواة إلى خارجية وداخلية. وبهذا الشكل يكون لدينا سبع طبقات متتالية.

وجعل في كل سماء من هذه واحدة من الجواري على الترتيب المعروف. انتهى.

قال الجَدُّ[1] متعقباً: والقلب يميل إلى الكرية، والله لا يستحيي من الحق. قال: وما ذهب إليه الشيخ، أمر شهودي، وفيه الموافق والمخالف لما ذهب إليه معظم المحدثين وأكثر علماء الدين. والذي قطع به بعض المحققين أنه لم يجىء في الأحاديث الصحيحة المرفوعة ما يفصل أمر السماوات والأرض أتم تفصيل، إذ ليست المسألة من المهمات في نظر الشارع، صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والمهم في نظره منها، واضح لامرية فيه، وسبحان من لا يتعاصى قدرته شيء.

و﴿ٱلَّيۡلَ﴾: واحد بمعنى جمع، وواحدته ليلة، مثل تمر وتمرة.

وقوله سبحانه: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي أنها دلالات على وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته. و﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الحس والوهم. ووجه دلالات المذكورات على وحدته تعالى أنها تدل على وجود الصانع دلالةَ الدخان على النار، لتغيرها المستلزم لحدوثها، وٱستنادها إلى مؤثر قديم. ومتى دلت على ذلك، لزم منه الوحدة. ووجه دلالتها على كمال علمه وقدرته أنها في غاية الإتقان ونهاية الإحكام لمن تأمل فيها، وتفكر في ظاهرها وخافيها؛ وذلك يستدعي كمال العلم والقدرة كما لا يخفى.

---

(١) يعني بالجد ـ على الأرجح ـ جدّه. صاحب تفسير «روح المعاني» وهو أبو الثناء، محمود شهاب الدين الألوسي، عالم العراق في عصره. ولد سنة ١٢١٧هـ، وتوفي سنة ١٢٧٠هـ. وله آثار عديدة في اللغة والأدب والفقه والتفسير.
ورده على الأمر الشهودي عند ابن عربي، هو رد على من تبنى هذا في زمننا من الفئة الضالة، التي تنكر المحسوس والملموس، وما اكتشف من العلوم. بدعوى أن الأرض مبسوطة. وهذا مما يضحك عليهم الأطفال.
وما ذكره ابن عربي فلا سند علمي له، لا من العقل ولا من النقل.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾، فقد فسرها ٱبنُ القَيِّم[1] في كتابه «بدائع الفوائد» أحسن تفسير، وٱستدل بها على وجود الصانع والنبوّات، وعلى المعاد والجنة والنار، بٱستدلال عجيب ليس من موضوع كتابنا هذا. فمن أراده، فليرجع إليه.

(١) هو أبو عبدالله شمس الدين، محمد بن أبي بكر الزُّرْعي الدمشقي، الإمام الكبير. ولد في دمشق سنة ٦٩١هـ، وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ. وقد سار في حياته على خطا شيخه الإمام شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة مناصرةً للسنّة، وحرباً على البدعة، وجرأة في الحق. ومصنفاته كثيرة منها: «إعلام الموقعين» و«زاد المعاد» و«إغاثة اللهفان» و«القصيدة النونية في العقيدة». وقد طبعناها مع شرحها للشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى.

سُورة الأنعام

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

المرادُ بـ ﴿ٱلنُّجُومَ﴾[١]: ما عدا النَّيِّرَيْنِ؛ لأنها التي بها الاهتداء، ولأنّ النجم يُخَصُّ - في العُرف - بما عداهما وُجِّوز أن يدخلا فيها، فيكون هذا بياناً لفائدتها العامة، إثر بيان فائدتهما الخاصة.

والمنجمون يقسمون النجوم إلى ثوابت وسيّارات. والسيارات[٢] عند المتقدمين سبع بإجماعهم. وعند المنجمين اليوم، وهم أهل الهيئة الجديدة، أن الشمس في وسط الكواكب التي تدور حولها، وأنها أعظم من الأرض بألف ألف مرة وثلاث مئة وثمانية وعشرين ألف مرة، وأن لها حركةً على نفسها. وقد ٱستنبط بعض علمائهم من تحوّل كَلَفها الذي يظهر على ظهرها، ورجوعه في أزمنة مخصوصه، أنها تدور على نفسها في خمسة وعشرين يوماً واثنتيْ عشرة ساعة، وجزموا بأن ليس لها حركة حول الأرض، بل للأرض حركة حولها، وأن (الأرض) إحدى السيّارات.

---

(١) * أجرام سماوية مشعة ذاتياً مكونة من غازات متوهجة (الهيدروجين والهليوم). ويبعد أقربها عنا بأكثر من (٢٧١) ألف مرة مقارنة ببعد الأرض عن الشمس (تبعد الأرض عن الشمس قرابة ١٤٩،٦ مل.كم). لذا تبدو نقاطاً مضيئة في السماء. وتم تصوير أكثر من مليار نجمة، وتحتوي مجرتنا ما لا يقل عن (١٠٠) مليار نجمة. هنالك نجوم أكبر حجماً من الشمس بمليارات المرات، وأخرى أقل بنفس المقدار (نجوم قزمة).

(٢) * السيارات أو الكواكب عددها تسعة: عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، ساتورن، أورانوس، نيبتون، بلاتون.

وهي عندهم: عُطارد، والزُّهَرَة، والأرض، والمِرّيخ، ووسنة (وقد كشفها رجل منهم يقال له «أولبوس» في حدود سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف للهجرة)، ونبتون (وقد كشفها رجل منهم يقال له «هاردنق» في حدود سنة عشرين ومئتين وألف للهجرة)، وسيرس (وقد كشفها رجل منهم يقال له «بياظي» في حدود سنة ست عشرة ومئتين وألف للهجرة)، وبلاس (وقد كشفها «أولبوس» أيضاً في حدود سنة سبع عشرة ومئتين وألف)، والمشتري، وزُحَلُ، وأورانوس (وقد كشفها رجل منهم يقال له «هرشل» في حدود سنة سبع وتسعين ومئة وألف للهجرة).

ولم يعدوا (القمر) من السيارات، بل من سيارات[1] السيارات؛ لأنه يدور حول الأرض ودَوَرانُها حول الشمس. وهو عندهم دون عظم الأرض[2] بتسع وأربعين مرة، وزعموا أن بُعد الشمس عن الأرض أربعة وثلاثون ألف ألف فرسخ[3] فرنسي، وهو المقدر بمسافة ساعة وخمس مئة ألف فرسخ، ومع هذا يصل نورها إلينا في مدة ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية، وأن البعد الأبعد للقمر عنها أحد وتسعون ألفاً وأربع مئة وخمسون فرسخاً، والبعد الأقرب له ثمانون ألفاً ومئة وخمسة فراسخ، فيكون البعد الأوسط نحو ستة وثمانين[4] ألف فرسخ.

وكانوا يزعمون من قبلُ أن ليس للشمس حركة على كوكب آخر، وإنما لها حركة على نفسها فقط، ثم أدركوا أن لها حركة على كوكب من كواكب الثريا، وجوزوا أن يكون لذلك الكوكب حركة على كوكب آخر أبعد منه، وهكذا إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإن سَعَةَ الجوّ غير متناهية عندهم، وفيه

---

(١) * تابع للأرض.

(٢) * كتلة القمر أقل بـ(٨١,٥) مرة من كتلة الشمس.

(٣) * تبعد الشمس عن الأرض بمقدار (١٤٩,٦) مليون. كم.

(٤) * يبعد القمر عن الأرض وسطياً بحوالي (٣٨٤٤٠٠) كم، وفي الأوج (٤٠٦٧٤٠) كم، أما في الحضيض فتبلغ (٣٥٦٤١٠) كم.

من الكواكب ما لا يتناهى أيضاً. وزعموا أن من هاتيك الكواكب[1] ما لا يصل نوره إلى الأرض في مئة سنة، بل أكثر، مع شدة سرعة الضوء كما أشير إليه آنفاً في بيان حركة ضوء الشمس.

و(النجوم الثوابت) لا يعلم عدتها إلا الله تعالى، والمرصود منها ألف وخمسة وعشرون نجماً بإدخال (الضفيرة). ومن أخرجها، قال: هي ألف واثنان وعشرون نجماً. ورتبوا الثوابت على ست أقدار، وسموها أقداراً متزايدة سدساً سدساً، وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب: أعظم، وأوسط، وأصغر.

ولهم تقسيمات لها أُخَرُ، باعتباراتٍ أُخَر، بنوا عليها ما بنوا، ولا يكاد يسلم لهم إلا ما لم يلزم منه محذور في الدين.

ومعنى ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] أي في ظلمات الليل في البر والبحر، أو في مشتبهات الطرق، وسماها «ظلمات» على الاستعارة.

وقد ذكر ابن قُتَيْبَةَ[2] في «كتاب الأنواء» كيفية استدلال العرب بالنجوم، والماهر فيه من قبائلهم. ولعلّنا نلم بذلك إن شاء الله تعالى.

وهذا إفراد لبعض منافعها بالذكر بحسب ما يقتضيه المقام، وإلاّ فهي أجدى من تفاريق العصا، وهي ـ في جميع ما يترتب عليها ـ كسائر الباب.

أما تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل والأوضاع ونحو ذلك مما يتوصل إلى مصلحة دينيه، فلا بأس به. والمنهيّ عنه من علوم النجوم، ما

---

(١) * الكواكب تعكس أشعة النجوم ولا تضيء، لأنها غير ملتهبة ومكونة في أعماقها من مركبات معدنية ثقيلة.

(٢) هو أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الإمام في اللغة والأدب. ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ، وتوفي فيها سنة ٢٧٦هـ. وله مصنفات كثيرة منها: «أدب الكاتب» و«عيون الأخبار» و«تأويل مشكل القرآن» و«الأنواء».

يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان: يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاقترانها وٱفتراقها. وهذا علم ٱستأثر الله تعالى به، لا يعلمه أحد غيره. فمن ٱدعى علمه، فهو مردود عليه.

فأما من يقول: إن الاَقتران والاَفتراق، الذي هو كذا، جعله الله علامة بمقتضى ما ٱطّردت به عادته الإلهية على وقوع كذا وقد يتخلف، فلا إثمَ عليه بذلك. وكذا الإخبار عما يدرك بطريق المشاهدة من علوم النجوم الذي يعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرض كفاية.

وأما ما في الصحيحين: إن رسول الله، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، صلّى صلاة الصبح في إثر ماء: أي مطر كان في الليل. فلما ٱنصرف، أقبل على أصحابه، فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي كافر. فأما من قال ـ مُطرنا بفضل الله تعالى ـ فذاك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال ـ مُطرنا بِنَوْءِ كذا ـ فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب».

فقد قال أهل العلم ـ ومنهم ٱبن قتيبة في كتاب الأنواء ـ: إنه محمول على ما إذا قال ذلك مريداً أن النوء هو المحدث. أما لو قال ذلك على معنى أن النوء علامة على نزول المطر، ومنزله هو الله تعالى وحده، فلا يكفر. لكن يكره له قول ذلك؛ لأنه من ألفاظ الكفر[1].

وفي «كتاب مفتاح دار السعادة» لابن القيم كلام مفصل في إبطال علم النجوم. وسنعود إلى الكلام على ذلك فيما يناسبه من الآيات.

---

(١) لقد أطلق بعض العلماء على أقوال كثيرة: إنها ألفاظ الكفر؟! ومما لا شك فيه بأن بعض ذلك صحيح. ولكن توسعوا فيها فأدخلوا فيها ما ليس بكفر أصلاً.
وقد تبعهم ـ في هذا الزمن ـ طائفة من الضالين، لا همّ لهم سوى تكفير المسلمين، من غير تفريق بين عالم وعامي ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ وقد ردّ عليهم أقوالهم أهل العلم والتحقيق.

والمقصود أن الاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر، ليس في قواعد الهيئة الجديدة ما يأبى هذه الآية، بل الكل متفقون على الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، ولهم في ذلك كتب وقواعد مشهورة يتخذها ربانو المراكب والجائلون في فيافي البراري، والله ولي التوفيق.

سُورة الأعراف

قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ...﴾ [الأعراف: ٤٠].

تفسير هذه الآية:

عن أبي هريرة[١]، رضي الله تعالى عنه أن رسول الله، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، قال: «الميت تحضره الملائكة. فإذا كان الرجل صالحاً، قال: أخرجي أيّتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أُخرجي حميدةً، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ وربٍّ راضٍ غير غضبان. فلا تزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلان ابن فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أُدخلي حميدةً، وأبشري برَوْح وريحان ورب راضٍ غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة»[٢].

والحديث مشهور. وكون السماء لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة، قد تفتحت له أبواب القبول، للنصوص الواردة فيه، ومنها حديث المعراج[٣]. وهو ثابت في الكتب الصحيحة، وفيه ذكر أبواب السماء على وجه لا يقبل التأويل وهو أمر ممكن، أخبر به الصادق، فلا حاجة الى تأويله.

---

(١) هو أبو هريرة، عبد الرحمن بن صخر الدوسي، صاحب رسول الله ﷺ، وأكثر الناس رواية عنه. ولد سنة ٢١ق.هـ، وتوفي سنة ٥٩هـ في المدينة المنورة.

(٢) رواه ابن ماجه وأحمد بسند حسن. وله شواهد كثيرة ـ ن ـ.
[انظر «صحيح سنن ابن ماجه» برقم ٣٤٣٧، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٣٦٤ برقم ٨٧٤٣، طبع المكتب الإسلامي].

(٣) أخرجناه في الصحيحين ـ ن ـ.

والمعترفون بالسماوات من الفلاسفة، أنكروا أن يكون لها أبواب. قالوا: لأن السماء كرية، لا تقبل الخرق والالتئام.

وهذا قولهم بأفواههم، لا يتم له دليل عند أهل الحق.

وظاهر كلام أهل الهيئة الجديدة جواز الخرق والالتئام على الأفلاك. لكنهم لا يعترفون بوجود السماوات السبع على الوجه الذي نطقت به النصوص. فإن مثل هذه الدقائق لا تصل إليه يد أفكارهم القاصرة، ولا لهم آلة يدركون بها حقائق الأمور. بل إن مثل هذه الأمور، لا تمكن الإحاطة بها، والدخول في حقائقها، إلا من أبواب النبوة والوحي الرباني، والسلام على من اتبع الهدى.

❀❀

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

تفسير مثل هذه الآية سبق في سورة البقرة، فنفسرها على سبيل الاختصار، فنقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي خالقكم ومالككم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. والمفسرون قالوا: المراد بالأيام الأوقاتُ، أي في ستة أوقات، أو في مقدار ستة أيام، على حذف مضاف، كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم]. فإن المتعارف أن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها[1]، ولم تكن هي حينئذٍ موجودةً. نعم، العرش ـ وهو المحدّد على المشهور عند الفلاسفة ـ موجود إذْ ذاك. لكن ذاك ليس نافعاً في تحقق اليوم العرفي.

وإلى حمل اليوم على المتعارف وتقدير المضاف، ذهب جمع من العلماء،

(١) * هذا النهار وليس اليوم.

وادعوا أن ٱبتداء الخلق كان يوم الأحد[1]، ولم يكن في السبت خلقٌ ـ أخذاً له من السبت بمعنى القطع لقطع الخلق فيه ـ. ولتمام الخلق في يوم الجمعة وٱجتماعه فيه، سمي بذلك. فأول يوم وقع فيه الخلق يقال له «الأحد»، وثاني يومٍ «الاثنين»، وهكذا، ويوم جُمِعَ فيه الخلقُ «الجمعةُ».

وذهب آخرون إلى حمل اليوم على اليوم اللغوي وعدم تقديم مضاف قبله، وقالوا: كان مقدار كل يوم ألف سنة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج].

وما ذكرناه سابقاً من تفسير الأيام بالأوقات، أو تقدير مضاف وهو مقدار ستة أيام، هو ما ذهب إليه القاصرون من المفسرين عن الوصول إلى ما ورد في الشريعة الغراء. فقد ذكر الإمام تقي الدين أبو العباس ٱبن تيمية[2] في «منهاج السنة» وغيرِهِ من مؤلفاته أن الأيام كانت تعرف قبل أن يخلق السماوات وما فيها. بأنوار تشرق من جانب العرش يعرف بها كل يوم من أيام الأسبوع، وبرهن على ذلك بما ينبغي مراجعته.

وفي خلقه سبحانَه الأشياءَ مدرَّجاً، تعليمٌ للخلقِ التثبتَ والتأنِّيَ في الأمور.

---

(١) * ليس في القرآن ما يؤيد هذا الادعاء، بل نجد فيه إشارة إلى أن عملية خلق السماوات والأرض تمت في ستة أيام.

(٢) هو شيخ الإسلام، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم، المعروف بابن تيمية. كان إماماً في المعقول والمنقول، منافحاً عن السنة، محارباً للبدعة، جريئاً في الحق لا يخاف فيه ملاماً، ولا يهاب سجناً وعذاباً. ولد في حران سنة ٦٦١هـ، وتوفي في دمشق سنة ٧٢٨هـ. وله مؤلفات كثيرة جداً ذكر بعضهم أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد منها: «الفتاوى» و«منهاج السنة» و«نقض المنطق» و«الإيمان» و«قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة».
وانظر في ترجمته «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي، و«الأعلام العلية» للبزار بتحقيقي.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف]، معناه: أنه ٱستوى عليه ٱستواءً يليق بذاته، لا أن المراد به «ٱستولى» كما ذهب إليه المعاندون وٱعتقدوا أن ليس فوق العرش إلٰه يعبد، مع أن نصوص الكتاب والسنّة ترغم أنوفهم، وكلام السلف في هذا الباب مشهور.

و(العرشُ) في المشهور: الجسم المحيط بسائر الأجسام، سمي به إمّا لٱرتفاعه، وإما للتشبيه بسرير الملك: فإنه يقال له عرش، ومنه قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] في عرش بلقيس[1]، لأن الأمور والتدبيرات تنزل منه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطّي سبحانه النهار بالليل. ولما كان المغطَّى يجتمع مع المغطِّي وجوداً، وذلك لا يتصور هنا، قالوا: المعنى يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً.

ومعنى قوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي سريعاً.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: خلقهن حال كونهن مذلَّلات تابعات، لتصرفه سبحانه فيهن بما شاء غير ممتنعات عليه جل شأنه، كأنهن مميزات، أمرن فٱنقَدْنَ. وإفراد الشمس والقمر بالذكر، مع دخولهما في النجوم، لإظهار شرفهما عليها، لِما فيهما من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تعرف الأوقات. وقدم الشمس على القمر، لأنها أسنى من القمر، وأسمى مكانة ومكاناً، بناء على ما قال الفلكيون وبرهنوا عليه أنها في السماء[2] الرابعة وأنه في السماء الدنيا. غير أن ذلك ليس بمسلَّم عند المحدثين، كالقول بأن نوره مستفاد من

---

(١) ملكة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وقد امتد سلطانها على اليمن، وخضعت له فارس وبابل، وقصتها مع سليمان عليه السلام مبينة في كتاب الله تعالى.

(٢) * الشمس موجودة في مجرتنا وليست في السماء الرابعة، التي لا يعرف العالم موقعها حالياً.

نورها[1]، لاختلاف تشكلاته على أنحاء متفاوتة بحسب وضعه من الشمس في القرب والبعد عنها، مع ما يلحقه من الخسوف، لا لاختلاف التشكلات وحده. فإنه لا يوجب الحكم بأن نور القمر مستفاد من الشمس قطعاً، لجواز أن يكون نصفه من ذاته ونصفه مظلم، ويدور على نفسه بحركة مساوية لحركة فلكه، فإذا تحرك بعد المحاق يسيراً، رأيناه هلالاً، ويزداد فنراه بدراً، ثم يميل نصفه المظلم شيئاً فشيئاً إلى أن يؤول إلى المحاق.

وباقي الآية معلوم.

فهذه الآية، ليس فيها ما يخالف قواعد الفن بوجه من الوجوه.

---

(١) * سطح القمر يعكس أشعة الشمس وهو ليس منبع النور.

سُورة برآءة

قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

تفسيرها:

(العَرْشُ) كما سبق هو الجسم المحيط بسائر الأجسام، ولا تصل إلى حقيقة عظمه الأفهام والأوهام. وسمته الفلاسفة «فلك الأفلاك» و«محدِّد الجهات»، وليس لهم على ذلك برهان ولا أثاره من علم.

ووصفَه بـ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾، ويحق له ذلك؛ لأنه لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى.

وفي الخَبَر: «إن الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة[1]، وهو بالنسبة إلى العرش كذلك.

وعن ٱبن عباس: إنه لا يقدِر قدرَهُ أحد[2].

---

(١) يشير إلى حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض». وهو حديث صحيح، انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم ١٠٩، طبع المكتب الإسلامي. ـ زهير ـ.

(٢) هو حديث صح موقوفاً على ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وقد روي مرفوعاً، وقال عنه الألباني: ضعيف غير أن ثبوته لابن عباس يلزم أن يكون صحيحاً، لأنه لا يكون منه من قبل الرأي ـ زهير ـ.

سُورة يونس

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

تفسير هذه الآية:

﴿ٱلشَّمْسَ﴾ مأخوذة من شمسة القلادة للخَرَزة الكبيرة وسطها. وسميت بذلك لأنها أعظم الكواكب[1] كما تدل عليه الآثار ويشهد له الحس، وإليه ذهب جمهور أهل الهيئة. ومنهم من قال: سميت بذٰلك، لأنها في الفلك الأوسط بين أفلاك العلوية وبين أفلاك الثلاثة الأُخَر على ترتيب ما في قوله:

زُحَلٌ شرى مريّخه من شمسه فتزاهرتْ لعُطاردَ الأقمار

وهو أمر ظني، لم تشهد له الأخبار النبوية كما ستعلمه.

وٱستفادةُ القمرِ النورَ من الشمس ـ سواء أكانت على سبيل الٱنعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيراً كما في المِرآة، أم بأن يستنير جوهره على ما هو الأشبه عند الرازي ـ قد ذكرها كثير من الناس.

وهي مما لم يجىء من حديثِ مَنْ عرج إلى السماء، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، وإنما جاء عن الفلاسفة.

---

(١) * الشمس نجمة وليست كوكباً، فهي مؤلفة أساساً من الهيدروجين والهيليوم الملتهب، وتقدر حرارتها السطحية بـ(٦٠٠٠) درجة، والباطنية بأكثر من (١٦) مليون درجة.

وقد زعموا أن الأفلاك الكلية تسعةٌ، أعلاها فلك الأفلاك، وهو الفلك الأطلس، ثم فلك الثوابت، ثم فلك زُحَلَ، ثم فلك المشتري، ثم فلك المريخ، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزُّهَرَةِ، ثم فلك عُطارِدَ وهو «الكاتب» بزعمهم، ثم فلك القمر.

وٱستدل كثير منهم على هذا الترتيب بما يبقى معه الاٌشتباه بين الشمس وبين الزُّهَرة والكاتب، كالكسف والانكساف وٱختلاف المنظر الذي توصلوا إلى معرفته بذات الشعبتين؛ لأن الأول لا يتصور هناك، لأن الزُّهَرَةَ والكاتب يحترقان عند الاٌقتران في معظم المعمورة، والثاني أيضاً مما لا يستطاع علمه بتلك الآلة، لأنها تنصب في سطح نصف النهار. وهٰذان الكوكبان، لا يظهران هناك، لكونهما حوالي الشمس بأقلّ من برجين. فإذا بلغا نصف النهار، كانت الشمس فوق الأرض شرقية أو غربية، فلا يُرَيان أصلاً.

وجعلُ الشمس في الفلك الأوسط ـ لما في ذلك من حسن الترتيب كأنها شمسة القلادة، أو لأنها بمنزلة المِلك في العالم، فكما ينبغي للملك أن يكون في وسط العسكر ينبغي لها أن تكون في وسط كرات العالم ـ أمرٌ إقناعي، بل هو من قبيل التمسك بحبال القمر.

ومثل ذلك تمسكهم في عدم الزيادة على هذه الأفلاك بأنه لا فضل في الفلكيات، مع أنه يلزم عليه أن يكون ثِخَنُ الفلك الأعظم أقل ما يمكن أن يكون للأجسام من الثخانة، إذ لا كوكب فيه حتى يكون ثخنه مساوياً لقطره. وقد بُيِّن في «رسالة الأبعاد والأجرام» أنه بلغ الغاية في الثخن، وحينئذٍ يمكن أن يكون لكل من الثوابت فلك على حدة، وأن تكون تلك الأفلاك متوافقةً في حركاتها جهةً وقطباً ومِنْطَقَةً وسرعةً. بل لو قيل: بتخالفِ بعضِها، لم يكن هناك دليل ينفيه؛ لأن المرصود منها أقل قليل. فيمكن أن يكون بعض ما لم يرصد متخالفاً.

على أن من الناس من أثبت كرةً فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم، وٱستدل على ذلك بما ٱستدل.

ومن علم أن أرباب الأرصاد منذ زمن يسير وجدوا عدة كواكب سيارة، غير السبع، ومنها «هرشل»[1] ـ وقد رصده بعض الفلاسفة المتأخرين، وهو أبطأ سيراً من زُحَل[2] فوجده يقطع البرج في ست سنين شمسية وأحد عشر شهراً وسبعة وعشرين يوماً ـ لا يبقى له اعتماد على ما قاله المتقدمون، ويجوّز أمثالَ ما ظفر به هؤلاء المتأخرون.

وأيضاً من الجائز أن تكون الأفلاك ثمانية، لإمكان كون جميع الثوابت مركوزةً في محدَّب ممثَّل زُحَلَ، أي في متممة الحاوي، على أنه يتحرك بالحركة البطيئة، والفلك الثامن يتحرّك بالحركة السريعة. وحينئذٍ تكون دائرة البروج المارّة بأوائل البروج منتقلة بحركة الثامن، غير منتقلة بحركة الممثّل. ليحصل انتقال الثوابت بحركة الممثل من برج إلى برج كما هو الواقع.

وقد صرّح البرجندي أن القدماء لم يثبتوا الفلك الأعظم، وإنما أثبته المتأخرون.

وأيضاً يجوز أن تكون سبعة، بأن تفرض الثوابت ودائرة البروج على محدَّب ممثل زُحَل، ويكون هناك نفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة، وتحركها إحدى الحركتين الأوليين؛ والأخرى بالكرة السابعة، وتحركها الأخرى. ولكن بشرط أن تفرض دوائر البروج متحركة بالسريعة دون البطيئة كتحركها متوهمة على سطوح الممثلات بالسريعة دون البطيئة، لتنقل الثوابت بالبطيئة من برج إلى برج كما هو الواقع

وأيضاً ذكر الرازي أنه لِمَ لا يجوز أن تكون الثوابت تحت فلك القمر، فتكون تحت كرات السيارة لا فوقها؟

---

(١) يريد (أورانوس) الذي كشفه (هرشل) كما تقدم قبل قليل في كلامه. (الأثري)

(٢) * تبلغ سرعة أورانوس المتوسطة في مداره حوالي (٦,٨ كم/ث)، بينما نراها عند زحل (٩,٦ كم/ث). أما طول فترة دوران أورانوس حول الشمس فتعادل (٨٤,٠١) سنة وزحل (٢٩,٤٦) سنة.

وما يقال من أنا نرى أن هذه السيارة تكسف الثوابت، والكاسف تحت المكسوف لا محالة، مدفوع بأن هذه السيارة إنما تكسف الثوابت القريبة من المِنطقة دون القريبة من القطبين. فلِمَ لا يجوز أن يقال: هذه الثوابت القريبة من المِنطقة مركوزة في الفلك الثامن، والقريبة من القطبين مركوزة في كرة أخرى تحت كرة القمر.

على أنه لِمَ لا يجوز أن يقال[1]: الكواكب تتحرك بأنفسها من غير أن تكون مركوزة في جسم آخر، ودون إثبات الأمتناع خرط القتاد؟

وذكروا في أستفادة نور القمر من ضوء الشمس أنه من الحدسيات، لأختلاف أشكاله بحسب قربه وبعده منها. وذلك ـ كما قال أبن الهيثم[2] ـ لا يفيد الجزم بالأستفادة، لأحتمال أن يكون القمر كرةً نصفُها مضيء ونصفُها مظلم، ويتحرك على نفسه فيرى هلالاً ثم بدراً ثم ينمحق، وهكذا دائماً.

ومقصود أنه لا بد من ضم شيء آخر إلى أختلاف الأشكال بحسب القرب والبعد، ليدل على المدعىٰ، وهو حصول الخسوف عند توسط الأرض بينه وبين الشمس.

وأنت تعلم أنه لا جزم أيضاً، وإن ضُمّ ما ضُمَّ، لجواز أن يكون سبب آخر لأختلاف تلك الأشكال النورية. لكنا لا نعلمه، كأن يكون كوكب كَمِد تحت فلك القمر، ينخسف به في بعض أستقبالاته، وإنْ طُعن في ذلك بأنه

---

(١) هذا الاحتمال هو الذي ذهب إليه المتأخرون من الفلاسفة الإفرنج، وبرهنوا عليه، وعدوا القول بما سواه محض هذيان، كما أنه مذهب المحدثين من المتشرعين، فالكواكب كلها سابحة في الجو بنفسها، متحركة بالجاذبية على تفصيل مذكور في محله. (المؤلف)

(٢) هو أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم، من العلماء المشهورين بالهندسة. ولد سنة ٣٥٤هـ، وتوفي نحو ٤٣٠هـ. وله مؤلفات كثيرة ترجم بعضها إلى اللاتينية وغيرها.

لو كان لَرُئِيَ. قلنا: لِمَ لا يجوز أن يكون ذلك الاختلاف والخسوف، من آثار إرادة الفاعل المختار من دون توسط القرب والبعد من الشمس وحيلولة الأرض بينها وبينه؟ بل ليس هناك إلاّ توسط الكاف والنون، وهو كافٍ عند من سلمت عينه من الغَيْن.

وللمتشرعين من المحدثين، وكذا للصوفية، كلمات شهيرة في هذا الشأن.

ولعلك قد وقفتَ عليها، وإلاّ فستقف بعدُ إن شاء الله تعالى.

وقد اَستندوا في ما يقولونه إلى أخبار نبوية، وأرصاد قلبية. وغالب الأخبار في ذلك، لم تبلغ درجة الصحيح، وما بلغ منها آحاد.

والحق أنه لا جزم بما يقولونه في ترتيب الأجرام العلوية وما يلتحق بذلك، وأن القول به مما لا يضرّ بالدين، إلا إذا صادم ما علم مجيئه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يسٓ: ٣٩] أي: قدر للقمر منازل، أو قدر مسيره في منازل. وتخصيص القمر بهذا التقدير، لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس، ولأن منازله معلومة محسوسة، ولكونه عمدة في تواريخ العرب، ولأن أحكام الشرع منوطة به في الأكثر.

والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً. وهي ـ على ما ذكره اَبن قتيبة في كتاب الأنواء، وغيرهُ ممن ألف في الأنواء ـ: السَّرَطان، والبُطَيْن، والثُّرَيّا، والدَّبَران، والهَقْعَةُ، والهنعة، والذِراع، والنَثْرَةُ، والطَّرْف، والجبهة، والزَّبْرَة، والصَّرْفَة، والعَوّاء والسِماك الرامح، والسِّمَاك الأَعْزَل، والغَفْر، والزُّبانَى، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة، والنعائم، والبلدة، وسَعْدٌ الذابح وسُعْدُ بُلَعَ، وسعد الأخبية، وفَرْع الدلو المقدَّم، والفَرْغُ المؤخر، وبطن الحوت.

وهي مقسمة على البروج الأثني عشر المشهورة، فيكون لكل برج منزلان وثلث. والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلاث مئة وستين جزءاً هي أجزاء دائرة البروج ـ على اثني عشر. والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة. وهي منقسمة بستين ثانية، وهي منقسمة بستين ثالثة وهكذا إلى الروابع والخوامس والسوادس وغيرها.

ويقطع القمر ـ بحركته الخاصة في كل يوم بليلته ـ ثلاث عشرة[1] درجة وثلاث دقائق وثلاثاً وخمسون ثانية وستاً وخمسين ثالثة.

وتسمية ما ذُكِر «منازلَ» مجازٌ؛ لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت، قريبة من المِنطقة. والمنزلة الحقيقية للقمر، الفراغُ الذي يشغله جِرْمُ القمر.

فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مُسامَتَتُهُ أيّاها. وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج، لأنها مفروضة أولاً في الفلك الأعظم.

وأما تسمية نحو الحَمَل والثور والجَوْزَة بذلك، فباعتبار المسامتة أيضاً.

وكان أولَ المنازل السَرَطان، ويقال له النَّطُح، وهو لأول الحمل؛ ثم تحركت حتى صار أوّلها ـ على ما حرره المحققون من المتأخرين ـ الفرع المؤخر، ولا يثبت على ذلك؛ لأن للثوابت حركةً على التوالي ـ على الصحيح، وإن كانت بطيئة، وهي حركة فلكها.

ومثبتو ذلك، اختلفوا في مقدار المدة التي يقطع بها جزءاً واحداً من درجات منطقته. فقال بعضهم: هي ست وستون سنة شمسية، أو ثمان

---

(١) * الرقم صحيح، ومن الملاحظ أن ظهور القمر يتأخر في كل ليلة عن الليل السابق بمقدار (٥٠) دقيقة، ويعود ذلك إلى أن القمر الذي يدور حول الأرض يقطع (٣٦٠) درجة في (٢٧,٥) يوماً تقريباً، أي أنه يقطع يومياً (١٣) درجة. أي أنه سيشكل زاوية مقدارها (١٣°) مقارنة مع موقعه في اليوم (الليل) السابق.

وستون سنة قمرية. وذهب ابن الأعلم[1] إلى أنها سبعون سنة شمسية. وطابقه الرصد الجديد الذي تولاه نصير الطوسي[2] بمراغة. وزعم محيي الدين[3] أحد أصحابه أنه تولى رصد عدة من الثوابت، كعين الثور وقلب العقرب، بذلك الرصد، فوجدها تتحرك في كل ست وستين سنة شمسية درجةً واحدةً. وادعى بطليموس أنه وجد الثوابت القريبة إلى المِنْطَقة متحركة في كل مئة سنة شمسية درجة.

والله تعالى أعلم بحقائق الأحوال، وهو المتصرف في ملكه وملكوته كما يشاء.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾. هذه الآية، تكلّم فيها كثير من المفسرين. وأحسن من تكلم عليها الإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية، ألّف في ذلك رسالةً سماها «بيان الهدى من الضلال».

وبعد أن ذكر لها مقدمة، قال:

«إني رأيت الناس في شهر صومهم، وفي غيره أيضاً، منهم من يصغي إلى ما يقوله بعض جهّال الحساب من أن الهلال «يُرَى أو لا يُرَى»، ويبني على ذلك إما باطنه وإما في باطنه وظاهره، حتى بلغني أن من القضاة من كان يرد شهادة العدد من العدول لقول الحاسب الجاهل الكاذب إنه يُرَى أو لا يُرَى، فيكون ممن كذّب بالحق لما جاءه. وربما أجاز شهادة غير المرضيّ لقوله،

---

(١) هو أبو القاسم علي بن القاسم العلوي ابن الأعلم، أحد علماء الهيئة. ولد في بغداد، وتوفي فيها سنة ٣٧٥هـ.

(٢) هو أبو جعفر نصير الدين، محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، فيلسوف عالم بالأرصاد والرياضيات والعلوم العقلية. ولد في طوس سنة ٥٩٧هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ. ومن مصنفاته الكثيرة: «تربيع الدائرة» و«تحرير أصول إقليدس» و«تحرير المجسطي» في الهيئة.

(٣) هو محيي الدين المغربي، الحلبي، من كبار الحكماء الذين جمعهم نصير الدين الطوسي في مرصد مراغة الذي اشتهر بآلاته وراصديه.

فيكون هذا الحاكم من السّماعين للكذب؛ فإن الآية تتناول حكام السوء كما يدل عليه السياق، حيث تقول: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] من الرُّشا وغيرها، وما أكثر ما يقترن هذان!

ومنهم من لا يقبل قوله في المنجم، لا في الباطن ولا في الظاهر. لكن في قلبه حُسْيكة من ذلك، وشبهة قوية، لثقته به من جهةِ أن الشريعة لم تلتفت إلى ذلك، لا سيما إن كان قد عرف شيئاً من حساب النيرين واجتماع القرصين ومفارقة أحدهما الآخر بعدة درجات وسبب الإهلال والإبدار والاستتار والكسوف والخسوف، فأجرى حكم الحاسب الكاذب الجاهل بالرؤية هذا المجرى.

ثم هؤلاء يجيزون من الحساب وصورة الأفلاك وحركاتها أمراً صحيحاً، قد يعارضهم بعض الجهال من الأميين المنتسبين إلى الإيمان أو إلى العلم أيضاً، فيراهم قد خالفوا الدين في العمل بالحساب في الرؤية، أو اتباع أحكام النجوم في تأثيراتها المحمودة والمذمومة، فيراهم لمّا تعاطوا هذا ـ وهو من المحرمات في الدين ـ صار كل ما يقولونه من هذا الضرب حقاً، ولا يميز بين الحق الذي دلّ عليه السمع والعقل، والباطلِ المخالف للسمع والعقل. مع أن هذا أحسن حالاً في الدين من القسم الأول؛ لأن هذا كذّب بشيء من الحق متأوّلاً جاهلاً من غير تبديل لبعض أصول الإسلام، والضرب الأول قد يدخلون في تبديل الإسلام. فإنّا نعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن العمل (في رؤية هلال الصوم أو الحج أو العِدّة أو الإيلاء أو غير ذلك من الأحكام المعلقة بالهلال) بخبر الحاسب أنه يُرَىٰ، أو لا يُرَى، لا يجوز. والنصوص المستفيضة عن النبي، صلّى الله تعالى عليه وسلّم، بذلك كثيرة، وقد أجمع المسلمون عليه، ولا يعرف فيه خلاف قديم أصلاً ولا خلاف حديث.

إلاّ أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المئة الثالثة زعم أنه إذا غُمّ الهلال، جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه بالحساب. فإن كان الحساب دلّ على الرؤية صام، وإلا فلا.

وهذا القول وإن كان مقيداً بالإغمام ومختصاً بالحاسب، فهو شاذٌ مسبوق بالإجماع على خلافه.

فأما ٱتباع ذلك في الصحو، أو تعليق عموم الحكم العام به، فما قاله مسلم.

وقد يقارب هذا القول من يقول من الإسماعيلية بالعدد دون الهلال، وبعضهم يروي عن جعفر الصادق[1] جدولاً يعمل عليه، وهو الذي ٱفتراه عليه عبدالله بن معاوية[2].

وهذه الأقوال خارجة عن دين الإسلام، وقد برّأ الله منها جعفراً وغيره. ولا ريب أن أحداً ما يمكنه مع ظهور دين الإسلام أن يُظهر الاستناد إلى ذلك، إلّا أنه قد يكون له عمدة في الباطن في قبول الشهادة وردّها، وقد يكون عنده شبهة في كون الشريعة تعلم الحكم به.

وأنا ـ إن شاء الله ـ أبيّن ذلك، وأوضح ما جاءت به الشريعة دليلاً وتعليلاً، شرعاً وعقلاً:

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فأخبر أنا مواقيت للناس، وهذا عام في جميع أمورهم، وخص الحج بالذكر تمييزاً له، ولأن الحج تشهده الملائكة وغيرهم[3]، ولأنه يكون في آخر شهور الحول، فيكون علماً على الحول، كما أن الهلال علم على الشهر، ولهذا يسمون الحول حجة، فيقولون: له سبعون حِجة، وأقمنا خمس حِجج. فجعل الله الأهلة مواقيتَ للناس في الأحكام الثابتة بالشرع ٱبتداء أو سبباً من العباد، وللأحكام التي تثبت بشروط العبد. فما ثبت من الموقتات

---

(١) هو أبو عبدالله، جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين، الملقب بالصادق، تابعي جليل، وعالم كبير. ولد في المدينة، وتوفي فيها سنة ١٤٨هـ.

(٢) هو عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. قتل في هراة سنة ١٣١هـ وكان قد خرج على الأمويين وطلب الخلافة لنفسه.

(٣) * - وكذلك لأنه ركن من أركان الإسلام وأحد فروضه الأساسية.

بشرع أو شرط، فالهلال ميقات له. وهذا يدخل فيه الصيام والحج ومدة الإيلاء والعدةُ وصوم الكفارة. وهذه الخمسة في القرآن. قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، وكذلك قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] وكذلك صوم النذر وغيره. وكذلك الشروط من الأعمال المتعلقة بالثمن، ودَين السَّلَم، والزكاة، والجزية، والعَقْل، والخيار، والأيمان، وأَجَل الصِّداق، ونجوم الكتابة، والصلح عن القصاص، وسائر ما يؤجل من دَيْن وعَقْد وغيرها.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾[يس]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يونس: ٥]. فقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ متعلق ـ والله أعلم ـ بقوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾، لا بـ ﴿جَعَلَ﴾؛ لأنّ كون هذا ضياءً وهذا نوراً، لا تأثير له في معرفة عدد السنين والحساب، وإنّما يؤثر في ذلك ٱنتقالهما من برج إلى برج؛ ولأن الشمس لم يعلّق لنا بها حساب شهر ولا سنة، وأنّما عُلّق ذلك بالهلال كما دلّت على تلك الآية؛ ولأنه قد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦][1] فأخبر أن الشهور

---

(١) * - الشهر بالمفهوم المعاصر، يمثل الفترة الزمنية القريبة لطول فترة دوران القمر حول الأرض، ويجب أن نميز بين الشهر القمري المعتمد على تبدل أطوار (منازل) القمر ويسمى بالشهر السينودي (إنه الزمن اللازم لكي ينطلق فيه القمر من منزلة ما ولنفرض الهلال ويعود إليها ثانية). ويبلغ طول هذا الشهر بالدقة (٢٩,٥٣٠٥٨٨) يوماً شمسياً، وبين الشهر النجمي البالغ (٢٧,٣٢١٧) يوماً شمسياً، وفيه يحقق القمر دورة كاملة حول الأرض منطلقاً من موقع نجم ثابت والعودة إليه ثانية. في التقاويم الحالية يتراوح طول الشهر ما بين (٢٨) و (٣١) يوماً.

معدودة أثنى عشر، والشهر هلالي بالاضطرار. فعلم أنّ كل واحد منها معروف بالهلال.

وقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضاً إنما علّقت الأحكام بالأهلة، وإنما بُدِّلَ من أتباعهم كما يفعله اليهود في ٱجتماع القرصين وفي جعل بعض أعيادها بحساب السنة الشمسية، وكما تفعله النصارى في صومها حيث تراعي الاٱجتماع القريب من أول السنة الشمسية وتجعل سائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في ٱصطلاحات لهم. فإن منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقد، ولهم ٱصطلاحات في عدد شهورها؛ لأنها وإن كانت طبيعية فشهودها عددي وضعي. ومنهم من يعتبر القمرية، لكن يعتبر ٱجتماع القرصين.

وما جاءت به الشريعة هو أكمل الأمور وأحسنها وأبينها وأصحها وأبعدها من الاٱضطراب. وذلك أن الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار، ولهذا سموه هلالاً؛ لأن هذه المادة تدلّ على الظهور والبيان إما سمعاً وإما بصراً كما يقال: أهلّ بالعمرة، أهلّ بالذبيحة لغيره، إذا رفع صوته. ويقال: تهلل وجهه، إذا ٱستنار وأضاء، وقيل: إن أصله رفع الصوت، ثم لما كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته سموه هلالاً، ومنه قوله:

يُـهِـلّ بـالـفـرقـد رُكْـبـانُـهـا كـمـا يُـهـلّ الـراكـب الـمـعـتـمـرْ

وتهللُ الوجه مأخوذ من ٱستنارة الهلال.

فالمقصود أن المواقيت حُدِّدت بأمر ظاهر بيّن، يشترك فيه الناس، ولا يشترك الهلالَ في ذلك شيءٌ. فإن ٱجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الإهلال، أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس مع تعب وتضييع زمان كثيرٍ وٱشتغال عما يَعني الناس ومالا بُدَّ منه، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف.

وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلاني أو الفلاني، هذا أمر لا يدرك بالأبصار، وإنما يدرك بالحساب الخفي الخاص المُشكل الذي قد يغلط، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريباً. فإنه إذا انصرم الشتاء، ودخل الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه الناس الربيع، كان وقت حصول الشمس في نقطة الاعتدال الذي هو أول الحَمَل. وكذلك مثله في الخريف. فالذي يدرك بالإحساس، الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريباً. فأما حصولها في برج بعد برج، فلا يحسب إلا بحساب فيه كلفة وشغل غيره مع قلة جدواه.

فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة، إلا الهلال.

وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وسنتهم والقسمةَ العقلية، وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة: إما أن يكونا عددين، أو طبيعيين، أو الشهر طبيعياً والسنة عددية، أو بالعكس.

فالذين يَعدونهما عدديين مثل من يجعل الشهر ثلاثين يوماً، والسنة اثنىٰ عشر شهراً. والذين يجعلونهما طبيعيين مثل من يجعل الشهر قَمرياً والسنةَ شمسيةً. ويلحق في آخر الشهورِ الأيامَ المتفاوتة بين السنتين.

فإن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وبعض يوم، خمس وسدس، وإنما يقال فيها ثلاثمائة وستون يوماً جبراً للكسر في العادة: عادةِ العرب في تكميل ما ينقص من التاريخ في اليوم والشهر والحول.

وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وبعض يوم، ربع يوم.

ولهذا كان التفاوت بينهما أحد عشر يوماً، إلاّ قليلا، تكون سنة في كل ثلاث وثلاثين سنة وثُلُث سنة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف]. قيل: معناه ثلاثمائة سنة شمسية، وازدادوا تسعاً بحساب السنة القمرية.

ومراعاة هذين، عادة كثير من الأمم من أهل الكتابين، سبب تحريفهم وأظنه كان عادة المجوس أيضاً.

وأما من يجعل السنة طبيعية، والشهرَ عددياً، فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين ممن يعدّ شهر كانون ونحوه عددياً، ويعتبر السنة بسير الشمس.

فأما القسم الرابع، فبأن يكون الشهر طبيعياً والسنة عددية، فهو سنة المسلمين ومن وافقهم.

ثم الذين يجعلون السنة طبيعية، لا يعتمدون على أمر ظاهر كما تقدم. بل، لا بُدَّ من الحساب والعدد. وكذلك الذين يجعلون الشهر طبيعياً، ويعتمدون على الاجتماع، لا بُدَّ فيه عندهم من العدد والحساب. ثم ما يحسبونه، أمر خفي ينفرد به القليل من الناس مع كلفة ومشقه وتعرّض للخطأ.

فالذي جاءت به شريعتنا، أكمل كل الأمور؛ لأنه وقّت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار، فلا يضلّ أحد عن دينه، ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه، ولا يدخل بسببه فيما لا يَعنيه، ولا يكون لأحد طريق إلى التلبيس في دين الله كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم.

وأما الحول، فلم يكن له حدّ ظاهر في السماء، فكان لا بُدَّ فيه من الحساب والعدد. فكان عدد الشهور الهلالية أظهر وأعمَّ من أن يحسب سير الشمس، وتكون السنة مطابقة للشهر، ولأن السنين إذا اجتمعت فلا بُدَّ من عددها في عادة جميع الأمم، إذْ ليس للسنين إذا تعددت حدٌّ سماوي يعرف به عددها، فكان عدد الشهور موافقاً لعدد الشهور. ثم جُعلت السنة اثني عشر شهراً بعدد البروج التي تكمل بِدَوْر الشمس فيها شمسيةً. فإذا دار القمر فيها، كمل دورته السنوية.

وبهذا كله تبيّن معنى قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. فإن عدد شهور السنة، وعدد السنة بعد السنة، إنما أصله تقدير القمر منازل. وكذلك معرفة الحساب، فإن حساب بعض الشهر ـ لِمَا يقع فيه من الآجال ونحوها ـ إنما يكون بالهلال. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

فظهر بما ذكرناه أنه بالهلال يكون توقيت الشهر والسنة، وأنه ليس شيء يقوم مقام الهلال البتَّةَ، لظهوره وظهور العدد المبني عليه، وتيسر ذلك وعمومه، وغير ذلك من المصالح الخالية من المفاسد.

ومن عَرَفَ ما دخل على أهل الكتابَيْن والصابِئِين والمجوس وغيرهم في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد، ازداد شكره على نعمة الإسلام، مع اتفاقهم أن الأنبياء. لم يشرعوا شيئاً من ذلك. وإنما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصائبة الذين دخلوا في ملّتهم، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

فلهذا ذكرنا ما ذكرنا، حفظاً لهذا الدين عن إدخال المفسدين، فإن هذا مما يخاف من تغييره.

فإنه قد كانت العرب في جاهليتها قد غيرّت ملّة إبراهيم بالنسيء الذي ابتدعته، فزادت به في السنة شهراً، جعلتها كَبِيساً لأغراض لهم، وغيروا به ميقات الحج والأشهر الحرم، حتى كانوا يحجون تارةً في المُحَرَّم وتارةً في صفر، حتى يعود الحج إلى ذي الحجة، حتى بعث الله المقيم لملّة إبراهيمَ، فوافى حجة، ﷺ، حجةَ الوداع وقد استدار الزمان كما كان ووقعت حجته في ذي الحجة، فقال في خطبته المشهورة في الصحيحين وغيرهما: «إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم: ثلاث متواليات ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بين جُمادىٰ وشعبان»[1]. وكان قبل ذلك الحجُ لا يقع في ذي الحجة، حتى حجةُ أبي بكر[2] سنةَ تسع كانت في ذي القعدة. وهذا من أسباب تأخير النبي، ﷺ، الحجَّ. وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما ـ ن ـ.

(٢) هو أمير المؤمنين أبو بكر، عبدالله بن أبي قحافة، التيمي القرشي، صاحب رسول الله ﷺ، وأول من آمن به من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين بعده. ولد سنة ٥١ ق. هـ، وتوفي في المدينة سنة ١٣هـ. ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف شهر.

﴿ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦]، فأخبر الله أن هذا هو الدين القيم، ليبين أن ما سواه من أمر النسيء وغيره من عادات الأمم ليس قيّماً لِما يدخله من الانحراف والاضطراب.

ونظير الشهر والسنة، اليوم والأسبوع. فإن هذا النهار طبيعي من طلوع الشمس إلى غروبها. وأما الأسبوع[1] فهو عَدَدي من أجل الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض ثم استوى على العرش، فوقع التعديل بين الشمس والقمر باليوم والأسبوع بسبب الشمس، والشهر والسنة بسبب القمر.

وبهذا قد توجه قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا - إلى جَعَلَ﴾، فيكون جعل الشمس والقمر لهذا كله.

فأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، فقد قيل: هو من الحساب، وقيل: بحُسبان كحسبان الرمي، وهو دوران الفلك فإن هذا مما لا خلاف فيه. فقد دل الكتاب والسنّة وأجمع علماء الأمة على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب: من أن الأفلاك مستديرة، لا مسطحة».

انتهى المقصود من نقله. ثم ذكر فصلاً ختم به رسالته، من أراده فليراجعه، فإن فيه فوائد كثيرة.

---

(١) * - لقد عرف الأسبوع كما تشير المصادر التاريخية ولأول مرة وحدة زمنية لدى البابليين القدماء ومنهم أخذ العالم هذه الوحدة. وجاءت تسمية أيام الأسبوع مطابقة لأسماء الكواكب السبعة التي كانت معروفة لديهم آنذاك، واعتبروا الرقم سبعة رقماً مقدساً لارتباطه بالكواكب المقدسة لديهم. والأصح أن منشأ الأسبوع مرتبط بأطوار القمر المتكررة كل (٢٩,٥)يوم، وإذا ما اعتبرنا أن القمر غير مرئي خلال (١ ½) يوم في فترة ما قبل ظهور الهلال، لذا فإنه يرى خلال (٢٨) يوماً وتعادل أربعة أسابيع.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالحق، مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة.

وقوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف] إنما خصهم، لأنهم المنتفعون بها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس]. في هذه الآية تنبيه إجمالي على قدرة الله تعالى، أي في تعاقب الليل والنهار، وكون كل منهما خِلْفَةً للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين عند أكثر الفلاسفة لحركة الفلك الأعظم حول مركزه، على خلاف التوالي، فإنه يلزمها حركة سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب مع سكون الأرض على ما زعموا. وهذا في أكثر المواضع.

وأما في عرض تسعين، فلا يطلع شيء ولا يغرب بتلك الحركة أصلاً، بل بحركات أخرى. وكذا فيما يقرب منه، قد يقع طلوع وغروب بغير ذلك، وتسمى تلك الحركةُ «الحركة اليومية»، وجعلها بعضهم ـ وهم فلاسفة الإفرنج ـ بتمامها للأرض، وجعل آخرون بعضَها للأرض، وبعضها للفلك الأعظم.

والقرآن العظيم، ساكت عن المذهبين، وذلك من براهين إعجازه.

والمشهور عند كثير من المحدثين أن الشمس نفسها تجري مسخّرةً بإذن الله تعالى في بحر مكفوف، فتطلع وتغرب حيث شاء الله، ولا حركة للسماء.

وإلى مثل ذلك ذهب الشيخ محيي الدين ابن عربي إمام صوفية عصره.

والله المطلع على حقائق الأمور، لا إلَه إلا هو وحده لا شريك له.

سُورة هُود

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...﴾[1] [هود: ٧].

تفسير الآية:

كان المراد بخلق السماوات والأرض خلقهما وما فيهما، أو تجعل «السماوات» مجازاً عن العلويات فتشملها وما فيها، وتجعل «الأرض» مجازاً بمعنى السفليات فتشملها وما فيها من غير تقدير. واحتيج إلى ذلك لاقتضاء المقام إيّاه. وإلاّ فخلقهما في تلك المدة، لا ينافي خلق غيرهما فيها.

والمراد باليوم، الوقتُ مطلقاً، لا المتعارف. إذ لا يتصور ذلك حين لا شمس ولا قمر. ومنهم من قال: أريد به مدة زمان دور المحدِّد المسمى بالعرش - بزعمهم - دورةً تامة. وإليه ذهب الشيخ محيي الدين، وقد علمت حاله فيما سبق، وأن الشيخ الإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية ذكر أن للأيام علاماتٍ تصدر من جانب العرش بها تعرف. وقد ذكر ذلك في كثير من كتبه، منها «منهاج السنّة».

وفي عدم خلقهما دفعةً - كما علمتَ - دليلٌ على كونه - سبحانَهُ - قادراً مختاراً، مع ما فيه من الاعتبار للنظّار، والحث على التأنّي في الأمور.

---

(١) * اليوم بالنسبة للأرض تلك الفترة التي يتم فيها دوران الأرض حول محورها دورة واحدة، أو الفترة التي يتعاقب فيها الليل والنهار. فهل قصد الله بكلمة اليوم يومنا الأرضي، أم دوران الكون جميعاً حول نفسه، أي حول مركزه وقطبه، وهذا يحتاج لزمن طويل جداً. ويقدر العلماء حالياً أن الأرض اكتسبت شكلها الكروي الحالي خلال فترة تعادل (٢٠٠) مل. سنة، وتطورت الأرض إلى ما هي عليه الآن خلال (٤,٥) مليارات سنة.

ولكن أمر الخلق إلهي وإذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

وإيثار صيغة الجمع في السماوات لاختلافها بالأصل والذات دون الأرض، وإن قيل إنها مثل السماء في كونها سبعاً طباقاً، بين كل أرض وأرض مسافة، وفيها مخلوقات، بذلك فُسِّر قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1] [الطلاق: ١٢].

والكثير على أن الأرض كرة واحدة، منقسمة إلى سبعة أقاليم، وحملوا الآية على ذلك.

ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] أن عرشه كان على الماء قبل خلقهما وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد[2]، وبه صرّح القاضي البيضاوي، ثم قال: «لم يكن حائل بينهما، أي بين العرش والماء، لا أنه كان موضوعاً على الماء، واستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم» انتهى.

ووافقه أبو السعود[3] على ذلك، لكنه قال:

«ليس تحت العرش غير الماء، سواء كان بينهما فرجة أو موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر. فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء. كيف لا، ولو دلّ لدلّ على وجوده، لا على إمكانه فقط، ولا على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش، وإنما يدلّ على أن خلقهما أقدم من خلق السماوات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما» انتهى.

والأكثرون على أن الحق مع أبي السعود.

وفي المقام تفصيل ينبغي أن يراجع تفسير الآية في مفصّل التفاسير.

---

(١) لا ينكر بعض العلماء احتمال وجود أراضين غير أرضنا في الكون.

(٢) هو أبو الحجاج، مجاهد بن جبر، تابعي، من شيوخ القراء والمفسرين. ولد سنة ٢١هـ، وتوفي سنة ١٠٤هـ.

(٣) هو محمد بن مصطفى العمادي من الأتراك المستعربين، عالم مفسر. ولد سنة ٨٩٨هـ، وتوفي سنة ٩٨٢هـ. ومن آثاره تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» المعروف باسمه.

سُورة الرّعد

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

تفسير الآية:

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي خلق الله السماوات مرتفعات على طريقةِ (سُبحانَ مَنْ كبّر الفيل وصغر البعوض) لا أنه ـ سبحانه ـ رفعها بعد أن لم تكن كذلك.

و(العَمَد): الدعائم، والمفرد عِماد كإهاب وأَهَب. يقال عَمِدْتُ الحائط أعمَدُهُ عَمْداً إذا دعمته فاعتمد واستند. والجمعُ لجمعِ السماوات، لا لأنّ المنفي عن كل واحدة منها العمد لا العماد.

و﴿تَرَوْنَهَا﴾: استئناف جيء به للاستشهاد على كون السماوات مرفوعةً كذلك، كأنه قيل: ما الدليل على ذلك؟ فقيل: رؤيتكم لها بغير عمد. فهو كقولك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني.

وهذا دليل على وجود الصانع الحكيم ـ تعالى شأنه ـ، وذلك لأن ارتفاع السماوات على سائر الأجسام المساوية لها في الجِرْمية كما تقرر في محله، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لا بدَ أن يكون لمخصص ليس بجسم ولا جسماني، يرجع بعض الممكنات على بعض بإرادته، وهو الله سبحانه الذي هو على كل شيء قدير.

ثم لا يخفى أن الضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ إذا كان راجعاً إلى السماوات المرفوعة، اقتضى ظاهر الآية أن المرئيّ هو السماءُ.

وقد صرح بعض الفلاسفة بأن المرئي هو كرة البخار[1]، وثِخَنُها أحد وخمسون ميلاً وتسع وخمسون دقيقة، والمجموع سبعة عشر فرسخاً وثلث فرسخ تقريباً. وذكروا أن سبب رؤيتها زرقاء أنها مستضيئة دائماً بأشعة الكواكب وما وراءَها لعدم قبول الضوء كالمظلم بالنسبة إليها. فإذا نفذ نور البصر من الأجزاء المستنيرة بالأشعة إلى الأجزاء التي هي كالمظلم، رأى الناظر ما فوقه من المظلم بما يمازجه من الضياء الأرضي والضياء الكوكبي لوناً متوسطاً بين الظلام والضياء، وهو اللون اللازَوردي. وذلك كما إذا نظرنا من جسم أحمرَ مشفٍّ إلى جسم أخضر، فإنّه يظهر لنا لون مركب من الحمرة والخضرة.

وأجمعوا أن السماوات التي هي الأفلاك، لا ترى؛ لأنها شفافة، لا لون لها، لأنها لا تحجب الأبصار عن رؤية ما وراءها من الكواكب، وكلُّ مُلَوَّن فإنه يحجب عن ذلك.

وتعقب ذلك الرازي بقوله: (إنا لا نسلّم أن كل ملوَّن حاجب، فإن الماء والزجاج ملونان لأنهما مرئيّان، ومع ذلك لا يحجبان.

فإن قيل: فيهما حجب عن الإبصار الكامل، قلنا: وكيف عرفتم أنكم أدركتم هذه الكواكب إدراكاً تاماً؟) انتهى.

على أن ما ذكروه لا يتمشى في المحدِّد، إذْ ليس وراءه شيء حتى يُرَى، ولا في الفلك الذي يسمونه بفلك الثوابت أيضاً، إذ ليس فوقه كوكبٌ مرئيٌّ.

وليس لهم أن يقولوا: لو كان كل منهما ملوناً، لوجَبَتْ رؤيته؛ لأنا نقول: جاز أن يكون لونه ضعيفاً كلون الزجاج، فلا يُرَى من بعيد.

---

(١) * يقصد بها الفلاسفة: الغلاف الجوي الأرضي، الذي تتناثر فيه الأشعة الزرقاء وسواها معطية للسماء هذا اللون، والكون بعد الغلاف الأرضي مظلم دامس.

ولئن سلمنا وجوب رؤية لونه، قلنا لِمَ لا يجوز أن تكون هذه الزرقة الصافية المرئية لونه؟ وما ذُكر أولاً فيها ـ دون إثباته خرط القَتاد.

وما يقال: إنها أمر يحس في الشفاف إذا بَعُدَ كما في ماء البحر، فإنه يرى أزرق متفاوت الزرقة بتفاوت قعره قرباً وبُعداً، فالزرقة المذكورة لون يتخيل في الجو الذي بين السماء والأرض؛ لأنه شفاف، بُعْدُ عمقه لا يجدي نفعاً، لأن الزرقة كما تكون لوناً متخيَّلاً قد تكون أيضاً لوناً حقيقياً قائماً بالأجساد، وما الدليل على أنها لا تحدث إلا بذلك الطريق التخيُّلي؟ فجاز أن تكون تلك الزرقة المرئية لوناً حقيقياً لأحد الفلكَيْنِ.

وأنت تعلم أنه لا مانع عند المسلمين من كون المرئي هو السماء الدنيا المسماة بفلك القمر عند الفلاسفة. بل، هو الذي تقتضيه الظواهر.

ولا نسلم أن ما يذكرونه من طبقات الهواء مانعاً. وهذه الزرقة يحتمل أن تكون لوناً حقيقياً لتلك السماء، صبغها الله تعالى به بحسب ما اقتضته حكمته. وعليه الأثريّون كما قال القسطلاني[1]. ويؤيده ظاهر ما صح من قوله، ﷺ: «ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغَبْراء، من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذَرّ»[2].

---

(١) هو أبو بكر، شهاب الدين، أحمد بن محمد بن أبي بكر، القسطلاني، من كبار علماء الحديث. ولد في القاهرة سنة ٨٥١هـ، وتوفي فيها سنة ٩٢٣هـ. ومن مؤلفاته «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري»، و«المواهب اللدنية في المنح المحمدية» وقد حققه الدكتور صالح أحمد الشامي وطبع في المكتب الإسلامي.

(٢) رواه الترمزي وابن ماجه والحاكم وأحمد عن ابن عمرو وقال الترمذي: «حديث حسن» ثم رواه عن أبي ذر وحسنه أيضاً. وله شواهد أخرى ـ ن ـ.
[وانظر «صحيح سنن الترمذي ـ باختصار السند» ٢٩٩٠، و«صحيح سنن ابن ماجه ـ باختصار السند» ١٢٧ وهما للألباني ـ إشراف زهير الشاويش، طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج، و«مسند الإمام أحمد» ٢/ ١٧٥ (٦٦٢٧) و٢/ ٢٢٣ (٧٠٧٥)، وعن أبي الدرداء ٥/ ١٩٧ (٢١٧١٨) و٦/ ٤٤٢ (٢٧٤٨٢)، و«مشكاة المصابيح» ٦٢٣٨ و٦٢٣٩، و«صحيح الجامع الصغير» ـ بترتيبي ٥٥٣٧ و٥٥٣٨].

ويحتمل أن يكون لوناً تخيلياً في طبقة من طبقات الهواء الشفاف الذي ملأ الله به ما بين السماء والأرض، ويكون لها في نفسها لون حقيقي، الله أعلم بكيفيته.

ولا بُعْدَ في أن يكون أبيض. وهو الذي يقضيه بعض الأخبار، لكنا نحن نراه من وراء ذلك الهواء بهذه الكيفية كما نرى الشمس من وراء جام أَخضرَ أخضرَ ومن وراء جام أزرق أزرقَ، وهكذا.

وبعض الناس يروي أثراً، لا صحة له[1]. وهو أن ذلك من ٱنعكاس لون جبل قاف عليها. وتعُقّب بأن جبل قاف لا وجود له، وبرهن عليه بما يرده ما جاء عن ٱبن عباس: أن وراء أرضنا بحراً محيطاً، ثم جبلاً يقال له قاف، ثم أرضاً، ثم بحراً، ثم جبلاً. وهكذا حتى عدَّ سبعاً من كل. وخرج بعض أولئك عن عبد الله بن بريدة[2]: أنه جبل من زمرّد، محيط بالدنيا، عليه كنف السماءِ. وعن مجاهدٍ مثله. ونقل صاحب حلّ الرموز: أن له سبعَ شعب، وأن لكل منها شعبة.

وأنا أقول: إن كل ذلك لا صحة له، ويجب الجزم بأن السماء ليست محمولةً إلا على كاهل القدرة، وأنها محيطة بالأرض من سائر جهاتها كما روي عن الحسن.

وفي الزرقة، الاحتمالان. وقد تعرض للون السماء ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة» بما يقتضي مراجعته.

بقي الكلام في رؤية باقي السماوات، وظاهر الآية يقتضيه، وهو غير مسلَّم. وظاهر بعض الآيات يساعد على ذلك، فنحتاج حينئذٍ إلى القول بأن الباقي وإن لم يكن مرئياً حقيقةً لكنه في حكم المرئيّ، ضرّورةً أنه إذا لم يكن

---

(١) * تصور وهمي أسطوري متوارث منذ القدم ولعله من الإسرائيليات.

(٢) هو أبو سهل، عبدالله بن بريدة بن الحُصَيب، الأسلمي، أحد القضاة ورجال الحديث. ولد سنة ١٤هـ، وتوفي سنة ١١٥هـ.

لهذا عمادٌ لا يتصور أن يكون لما وراءه عماد بوجه من الوجوه. ويؤل هذا إلى كون المراد: ترونها حقيقةً أو حكماً بغير عَمَد. وجوّز أن يكون المراد: ترون رفعها، أي السماوات جميعاً، بغير ذلك.

وقد تقدم الكلام على العرش والاستواء، وسنعود إليه فيما يناسب من الآيات.

ومعنى تسخير الشمس والقمر جعلهما طائعين لِما أريد منهما. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1] [الرعد] أي يسير في المنازل والدرجات لوقت معين، فإن الشمس تقطع الفلك في سنة، والقمرَ في شهر لا يختلف جَرْيُ كل منهما كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس]. وهو المروي عن ابن عباس.

ومن المفسرين من قال: أي كلٌّ يجري لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره، وهي: إذا الشمس كُوِّرت وإذا النجوم انكدرت. وهذا مراد مجاهد من تفسير الأجل المسمى بالدنيا.

وعلى قول الفلاسفة المتأخرين إن للشمس حركةً مركزها، وهو معنى ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ﴾ [يس].

وزعم ابن عطية[2] أن ذكر الشمس والقمر قد تضمن ذكر الكواكب، فالمراد من (كل) كل منهما هو في معناها من الكواكب.

---

(١) * لكل النجوم والكواكب عمر زمني ثم يتلاشى، وتتحول النجوم من شكل إلى آخر. فيختلف لون الضوء الصادر عنها؛ وتتدرج الألوان بين الأزرق القاتم والأحمر الغامق، وتتراوح حرارتها السطحية بين (١١٠٠٠٠) (الزرقاء القاتمة) و(٣٠٠٠) درجة (الحمراء الداكنة).

(٢) يوجد مفسران اثنان يعرفان بابن عطية وهما: عبدالله بن عطية، الدمشقي، المتوفى سنة ٣٨٣هـ، وعبد الحق بن غالب، الأندلسي، المتوفى سنة ٥٤٢هـ، ويفرق بينهما بأن يوصف عبدالله بالمتقدم، وعبد الحق بالمتأخر؛ ولم يفعل ذلك المؤلف رحمه الله. والظاهر أنه المتأخر.

والحق ما علمتَ، والله العالم بما تضمنته آياته.

❁ ❁

ومن آيات سورة الرّعد، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

هذه الآية متصلة بالآية التي قبلها. فإنه ـ سبحانه ـ لما ذكر من الشواهد العلوية ما ذكر، أردفها بذكر الدلائل السفلية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾. قال علماء الهيئة الجديدة: الأرض جِرم من الأجرام السماوية، يعني أنها جِرم من الأجرام التابعة للشمس، وهي السيارات الدائرة حولها على أبعاد متفاوتة، وسميت (النظام الشمسي)، وشكلوا لذلك شكلاً في وسطه الشمسُ، ثم عُطارد وهو أقرب إلى الشمس من سائر السيارات المعروفة، وبعده الزُّهَرَةُ، ثم الأرض، ثم قمرها، ثم المريخ، ثم فسحة واسعة فيها مئتان واثنان وسبعون جِرماً صغيراً تسمى النجيمات أو الشبيهة بالسيارات، ثم المشتري، ثم زُحَل، ثم أورانوس، ثم نبتون، ثم بُعْدٌ مهول وخلاء مجهول حتى ينتهي إلى أقرب النجوم الثوابت التي يعدّ كل واحد منها شمساً لا يُرى توابعها للبعد الشاسع. و(النظام الشمسي) ينتهي عند نبتون[1]، أعني لا يعرف سيار أبعد من نبتون، بل إنه إلى الآن لم يكشف عن وجود جرم تابع للنظام الشمسي أبعد من المذكور. والنجوم الثوابت، ليست من النظام الشمسي، بل هي أنظمة مستقلة تُرَى منها شمسنا كما ترى هي من عندنا، أي نقطاً لامعة نيّرة في القبة الزرقاء.

وقالوا في شأن الأرض أيضاً وحركتها: السيار التابع للنظام الشمسي ـ الذي نحن ساكنون عليه ـ هو الأرض، وأنها كرية الشكل، وأقاموا على ذلك

(١) * المنظومة الشمسية لا تنتهي عند نيبتون بل يليه بلوتون الذي يبعد عن الشمس قرابة (٥٩١٠) مليون كم، بينما يبعد نيبتون عن الشمس مسافة (٤٥٠٤) مليون كم.

دلائلهم المعلومة في كتبهم، وأنها ـ على عظمها ـ سابحة في الفضاء، وليست لها حافة يَنتهي إليها من يجوب سطحها، كما إذا مشت ذبابة على بطيخة معلقة، فهي لا تنتهي إلى حافة، كذلك الأرض الكروية الشكل السابحة في الفضاء ليس لها حافة ينتهي إليها من يجوب سطحها، وهي عائمة في الفضاء.

وذهبوا إلى أن حركتها، وكذا سائر الأجرام السماوية، من الغرب إلى[1] الشرق، لا كما يتراءى أن حركة هذه الأجرام من الشرق إلى الغرب.

وذهبوا إلى أن لها حركة أخرى غير الحركة اليومية، وهي الحركة السنوية. فللأرض عندهم حركتان: حركة يومية، وهي دورانها على محورها مرةً من الغرب إلى الشرق، ومنها ٱختلاف الليل والنهار. وحركة من الغرب إلى الشرق حول الشمس مرة واحدة كل سنة.

هذا ما ذكره علماء الهيئة الجديدة في شأن الأرض.

وقد تصفحت القرآن العظيم الشأن، فوجدت عدة آيات نطقت بما يتعلق بالأرض من جهة الاستدلال بها على وجود خالقها وعظمة باريها، ولم يذكر فيها شيء مما يخالف ما عليه أهل الهيئة اليوم.

ولا ينافي كُرِيَتَها[2] ما يدل ظاهرها على المد والبَسط والفرش، فإن هذا كله لا ينافي الكرية؛ لأن المراد من بسطها وتوسعتها ومدّها ما يحصل به الانتفاع لمن حلها. ولا يلزم من ذلك نفي كريتها، لِمَا أن الكرة العظيمة ـ لِعظمها تُرَى كالسطح المستوي وكأن كل قطعة منها سطح مفروش يصح القعود والنوم عليه والكرة كلما عظمت قربت أقواس سطحها إلى الخط المستقيم.

وفي الشريعة دلائل كثيرة تدل على كرية الأرض والسماء، منها اعتراف

---

(١) * لأورانوس حركة دورانية معاكسة لبقية الكواكب الشمسية فيما عدا الزهرة.

(٢) * الأرض هندسياً كروية ولكن واقعياً لها شكل مميز هو شكل الأرض الحقيقي المختلف عن الكروي ويطلق عليه الجيوئيد (Geoidos) و Geo تعني الأرض وeidos تعني شكل مظهر، ويذكرنا شكلها إلى حد ما بثمرة الكمثرى.

الأئمة باختلاف المطالع، فإن الصبح في بعض البلاد يوافق المساء في بلاد أخرى، وطلوع الهلال في بعض الآفاق يوافق غيبوبته في بلاد أخرى، وهكذا الشمس وسائر الكواكب. ففي بعض الآفاق يرى القطب الشمالي[1] فوق رؤوس أهله، والقطب الجنوبي لا يرى أصلاً، وسكنة خط الاستواء يرون القطبين على الأفق. وفي بعض البلاد تكون الحركة فيه دولابية، وفي البعض حمائلية، وفي البعض رَحَوية. كل ذلك مبني على كُرِيَةِ الأرض، ولولاها لما كان شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[2] [الرعد: ٣]، لا ينافي الكرية؛ وما على الأرض من الجبال والأودية والبحار، لا يخرج الأرض عن الكرية. فإن أعظم جبل بالنسبة إليها كنسبة سُبع عرض شعيرة إلى كرة قطرها ذراع.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣] معناه: جعل فيها جبالاً ثوابتَ في أحيازها، من الرُّسو، وهو ثبات الأجسام الثقيلة وفي الخبر: «لما خلق الله تعالى الأرض، جعلت تميد[3]، فخلق الله الجبال عليها، فاستقرّت،

---

(١) * يقصد به نجم القطب الشمالي.

(٢) * تكرر هذا التعبير في القرآن، وفي الواقع تشكلت القشرة الأرضية الصخرية نتيجة لصعود الصخور المصهورة (المهل) من باطن الأرض إلى سطحها فامتدت وانتشرت وشكلت القارات وقيعان المحيطات.

(٣) * توجد تحت القشرة الأرضية الصخرية الصلبة طبقة انتقالية نحو طبقة الرداء/ المانتيل/ ذات خصائص لدنة مرنة تسمى استينوسفيرا ويقدر أن (١٠٪) منها مصهور على شكل جيوب تحتوي على المهل، وتستند الطبقة على الجزء الأعلى للرداء الصلب، فهي محصورة بين طبقتين قاسيتين، وبسبب كروية الأرض وليونة هذه الحركة والطاقة الحرارية الباطنية العالية تتعرض القشرة الأرضية الخارجية للانزلاق والحركة، ولكن وجود الجبال الرواسي الممتدة جذورها إلى هذه الطبقة ﴿وجعلنا الجبال أوتاداً﴾ قد بطأ وبشكل فعّال من فعالية حركة القشرة الأرضية ولم يمنعها، ولو منعها لتفجرت وتكسرت القشرة الأرضية في لحظة ما بتأثير الطاقة الحرارية الباطنية، وفي نفس الوقت لولا الجبال وجذورها لزادت حركة القشرة الأرضية كثيراً، ولعاشت الأرض تاريخاً وواقعاً زلزالياً وبركانياً رهيباً.

فقالت الملائكة: ربنا، خلقتَ خلقاً أعظم من الجبال؟ قال: نعم، الحديد، فقالوا: ربنا، خلقتَ خلقاً أعظم من الحديد؟ قال: نعم، النار، فقالوا: ربنا خلقتَ خلقاً أعظم من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالوا: ربنا، خلقتَ خلقاً أعظم من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالوا: ربنا، خلقتَ خلقاً أعظم من الهواء؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق الصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله[1].

وهذا أيضاً، لا ينافي حركة الأرض اليومية والسنوية التي قال بهما أهل الهيئة؛ فإن الله تعالى لو لم يخلق في الأرض الجبال لمادت، أي اضطربت، والميد: اضطراب الشيء العظيم. فلما ألقى فيها الرواسي، وهي الجبال الثوابت، انتفى ذلك. ووجه كون الإلقاء مانعاً عن اضطراب الأرض، أنها كسفينة على وجه الماء، والسفينة إذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى حركة شيء، وإن وضعت فيها أجرام ثقيلة تستقرّ. فكذا الأرض، لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت، فالجبال بالنسبة إليها كالأجرام الثقيلة الموضوعة في السفينة بالنسبة إليها.

والمقصود أن جَعْلَ الرواسي فيها لا يعارض حركتها بوجه من الوجوه، كما أن السفينة إذا كان فيها أجرام ثقيلة تمنع اضطرابها وميلها من جانب إلى جانب لا ينافي حركتها. وسنزيد ذلك بياناً فيما يناسب من الآيات الآتية إن شاء الله تعالى.

و(الأنهارُ) المجعولة في الأرض كثيرة، وذكر بعضهم أنها مئة وستة وتسعون نهراً[2]، وجاء في أربعة منها: أنها من الجنة، وهي: سيحان

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٢٣) [برقم ١٢٢٣٨، طبع المكتب الإسلامي] وغيره بسند ضعيف ـ ن ـ.

(٢) * الأنهار أكثر من ذلك بكثير.

وجيحان والفرات والنيل، وكل واحد منها من أنهار الجنة[1]. وجاء في بعض الأخبار مرفوعاً: «نهران مؤمنان، ونهران كافران. أما المؤمنان فنيل والفرات، وأما الكافران فدجلة وجيحون»[2]. وحُمِل ذلك على أنه، ﷺ، شبه النهرين الأولين ـ لنفعهما ـ بسهولة المؤمن، والنهرين الآخرين بالكافر لعدم نفعهما كذلك، فإنهما إنما يخرج ـ في الأكثر ـ ماؤهما بآلة ومشقة[3]، وإلّا فوصف ذلك بالإيمان والكفر على الحقيقة لا نعلم كيفيته[4].

وأما آخر الآية، وهو قوله تعالى:

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فتفسيره ليس من موضوع كتابنا، فإن التفكر فيها إلى الحكم بأن يكون كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب الفائق، لا بُدَّ له من مكوّن قادر حكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٤٩) وأحمد (٢/ ٢٦٠، ٢٨٩، ٤٤٠) [٧٥٣٠، ٧٨٦٨، ٩٦٥٤] ـ ن ـ.

وليس معنى هذا بأن هذه الأنهر الموجودة على الأرض هي المقصودة، وإنما هي البركة التي طرحها الله فيها، وللعلماء كلام طويل حول هذه. انظر «زاد المسير في علم التفسير» للإمام ابن الجوزي. طبع المكتب الإسلامي ـ زهير ـ.

(٢) لم أجده، ولم يورده السيوطي في «الجامع الكبير» وما أظنه يصح ـ ن ـ.

(٣) ليس هنالك صعوبة في استغلال مياه كل هذه الأنهار.

(٤) * تصورات موغلة في القدم، إذ كان الناس يعتقدون بأن نهراً عظيماً (محيطاً) يحيط بالأرض الواحدة، ووراء النهر هذا توجد الجنة ومنه ينبع النيل، متسللاً من تحت المحيط إلى منابيع النيل في الهضبة الحبشية.

سُورة إبراهيم

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾[1].

تفسير الآية:

قال ابن عباس: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ يزاد فيها، وينقص منها، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها، وتمدّ مدَّ الأديم العُكاظي، وتصير مستوية لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً، ﴿و﴾ تبدل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بذهاب شمسها وقمرها ونجومها، فحاصله يغيَّر كل عما هو عليه في الدنيا. وأنشد:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتُهُمْ ولا الدار بالدار التي كنت أعلم

وقال ابن الأنباري[2]: تبدل السماوات بطيّها، وجعلها مرةً كالمُهْل ومرةً وردةً كالدِهان.

---

(١) * الأرض كسائر الأجرام السماوية في تطور مستمر ولن تبقى على شكلها الحالي، وتغيرت مواقع القارات ومراكز القطبين مراراً، ولم تأخذ القارات والمحيطات توزعهما الحالي إلا منذ (١٠٠) مليون سنة تقريباً، وتتجه الآن أفريقيا شمالاً نحو أوروبا وشبه الجزيرة العربية وأستراليا نحو الهند وجنوب شرق آسيا، ويتوسع البحر الأحمر بمقدار (١٠٢) كم في السنة. وفي الأرض مخزون حراري يتزايد مع الزمن وسيؤدي حتماً إلى انفجارات وتبدلات جذرية في شكل الأرض وسطحها، وبالتالي ستختفي البحار والجبال وسيغطي المهل كامل الأرض.

(٢) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد، الأنباري، من علماء اللغة والأدب والأخبار. ولد في الأنبار سنة ٢٧١هـ، وتوفي في بغداد سنة ٣٢٨هـ.
ومن آثاره «عجائب علوم القرآن» و«غريب الحديث» و«شرح معلقة زهير» و«الزاهر» في اللغة.

وعن مجاهد: تكون الأرض كالفضة، والسماوات كذلك.

وعن ابن مسعود[1]: تبدل الأرض أرضاً بيضاء، كأنها سبيكة بيضاء، لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل فيها خطيئة.

وجاء في تبدل الأرض روايات أُخرى مذكورة في التفسير، وكذا السماوات، كل ذلك في الآخرة. وذلك مما يجب الإيمان به على من آمن بالرسول، وأن يقول المؤمن:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران].

وليس هذا من موضوع فن الهيئة، فإنهم يتكلمون على ما تصل إليه يد دلائلهم، والله ولي التوفيق.

---

(١) هو أبو عبد الرحمن، عبدالله بن مسعود الهذلي، صاحب رسول الله ﷺ، ومن أجل الصحابة علماً وعقلاً وأسبقهم إسلاماً، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ. وتوفي - رحمه الله - في المدينة سنة ٣٢هـ.

سُورة الحِجر

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

في هذه الآية إثبات باب للسماء، وأنها جِرْم من الأجرام. وأثبت لها بروجاً، وأثبت الشهب، وأثبت للأرض امتداداً، وألقى فيها رواسي لئلاّ تميد بساكنيها.

وبعض هذه الأمور، قد مرّ بيانها غير مرة بما لا مزيد عليه، ومع ذلك نتكلم في تفسيرها إجمالاً:

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أراد به على هؤلاء المقترحين المعاندين، والمراد بالباب غير أبواب السماء المعهودة التي وردت في حديث المعراج.

ومعنى ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: أي يصعدون في ذلك الباب بحسب ما نيسره لهم، فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم مستوضحين لِما يَرَوْنَهُ كما يفيده (ظلوا)؛ لأنه يقال: ظل يعمل كذا، إذا فعله في النهار حيث يكون للشخص ظلّ.

ومعنى قوله: ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي سُدَّت ومنعت من الإبصار حقيقة، وما نراه تخيّل لا حقيقة له، وذلك لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق.

وقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي قد سحرنا محمد، ﷺ، عند ظهور سائر الآيات الباهرة.

ثم إنه ـ تعالى ـ لّما ذكر حال منكري النبوة، وكانت متفرعة على التوحيد، ذكر دلائله السماوية والأرضية، فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ والبروج: جمع بُرج، وهو ـ لغةً ـ القصر، والحصن. أي جعلنا في السماء قصوراً فيها الحرس، أو أن المراد بالبروجِ الكواكب العظام، أو الكواكب السيّارة، أو أنها مطلق الكواكب. وعن ابن عباس تفسير ذلك بالبروج[1] الأثني عشر المشهورة، وهي ستة شمالية: ثلاثة ربيعية، وثلاثة صيفية وأولها «الحَمَلُ»، وستة جَنُوبية: ثلاثة خريفية، وثلاثة شتائية وأولها «الميزان». وقد جمعها الشاعر بقوله:

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبلَ الميزانِ
ورمى عقربٌ بقوسٍ جدَيّاً ومن الدلو مشرب الحيتان

وطول كل برج عندهم ثلاثون درجة، وعرضه ثمانون درجةً ومئة وتسعون، منها في جهة الشمال، ومثلها في جهة الجنوب. وكأنها إنما سميت بذلك، لأنها كالحصن أو القصر للكوكب الحالّ فيها.

وهي في الحقيقة أجزاء الفلك الأعظم، وهو المحدِّد ـ بزعمهم ـ المسمى بلسانهم: «الفلك الأطلس» و«فلك الأفلاك»، وبلسان الشرع بعكسه.

---

(١) * عدد البروج في قبة السماء (٨٨) برجاً، وهي عبارة عن تجمعات نجمية، تخيل لها القدماء أشكال آلهة وحيوانات ومنها جاءت التسمية اليونانية القديمة (Zodiak)، ولا تزال تربط بعض الديانات وإلى الآن مصائر الناس وطباعهم بها. وتمر الشمس أثناء حركتها الظاهرة عبر مدارها السماوي (Ekleiptikos) بأثني عشر برجاً، ولكل برج اسم ورمز يمثل شكل البرج المرئي من الأرض، وتقبع الشمس حوالي شهر في كل برج، ومن هذه الأبراج: الحمل (آذار) والسرطان (حزيران)، والأسد (تموز)، والميزان (أيلول) والجدي (كانون الثاني)... إلخ

ولهذا يسمي الشيخ محيي الدين ابن عربي الفلك الأطلس بـ «فلك البروج» والمشهور تسمية الفلك الثامن ـ وهو فلك الثوابت ـ به، لاعتبارهم الانقسام فيه. وكان ذلك لظهور ما يتعيّن به الأجزاء من الصور فيه، وإن كان كل منها منتقلاً عما عينه إلى آخَرَ منها، لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على اختلاف التوالي وإن لم يثبتها له، لعدم الإحساس بها، قدماءُ الفلاسفة، كما لم يثبت الأكثرون حركتها على نفسها، وأثبتها الشيخ أبو علي[1] ومن تبعه من المحققين.

وقد صرحوا بأن هذه الصور المسماة بالأسماء المعلومة توهمت على المِنطقة وما يقرب منها من الجانبين من كواكب ثابتة ينظمها خطوط موهومة، وقعت وقت القسمة في تلك الأقسام، وإنما توهموا لكل قسم صورةً ليحصل التفهم والتعليم، بأن يقال: الدَّبَران ـ مثلاً ـ عين الأسد.

وتعقب هذا القولَ بعضُهم، وقال: هذا ليس بسديد عندي، لأن تلك الصور لو كانت وهميةً، لم يكن لها أثر في أمثالها من العالم السفلي، مع أن الأمر ليس كذلك. فقد قال بطليموس في الثمرة: الصور التي في عالم التركيب مطيعة للصور الفلكية، إذ هي في ذواتها على تلك الصور، فأدركتها الأوهام على ما هي عليه. انتهى.

ثم هذه البروج مختلفة الآثار والخواص، بل لكلِّ جزءٍ من كلٍّ منها ـ وإن كان أقل من عاشرة بل أقلّ الأقلّ ـ آثار تخالف آثار الجزء الآخر. وكل ذلك آثار حكمة الله تعالى وقدرته عزّ وجلّ.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن عربي ـ في بعض كتبه ـ: أن آثار النجوم وأحكامها، مفاضة عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدِّد.

---

(١) هو الحسين بن عبدالله بن سينا، الفيلسوف المعروف. ولد سنة ٣٧٠هـ. وتوفي سنة ٤٢٨هـ. وله مصنفات في الفلسفة والطب والطبيعيات واللغة.. ومن هذه المصنفات: «القانون» في الطب، و«الشفاء» في الحكمة، ورسالة في «الهيئة».

وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاثمائة من «فتوحاته»: «أن الله تعالى قسم الفلك الأطلس اثني عشر[1] قسماً، سماها بروجاً، وأسكن كل برج منها مَلَكاً، وهؤلاء الملائكة أئمة العالم، وجعل لكل منهم ثلاثين خِزانةً، يحتوي كل منها على علوم شتى، يهبون منها للنازل بهم قدر تعطيه رتبته. وهي الخزائن التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

وتسمى عند أهل التعاليم بـ«درجات الفلك». والنازلون بها هم الجواري. والمنازل وَعَيُّوقاتها من الثوابت. والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الإلٰهية هي ما يظهر في عالَمِ الأركان من التّأثيرات، بل ما يظهر في مقعَّر فلك الثوابت إلى الأرض.

إلى آخر ما قال: وقد أطال الكلام في هذا الباب، وهو بمعزل عن اعتقاد المُحَدِّثين نَقَلَةِ الدين[2].

ثم إن في اختلاف خواص البروج ـ بحسب ما تشهد به التجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء ـ أدلُّ دليل على وجود الصانع المختار، جلَّ جلاله.

و(تزيين السماء) بما فيها الكواكب السيارات ونحوها، وهي كثيرة، لا يعلم عددها إلاّ الله تعالى.

وقد أسلفنا أن المرصود منها ألف ونيّف وعشرون كوكباً[3]، وأنهم رتبوها على ست مراتبَ، وسمّوها أقداراً متزايدةً سُدُساً سُدُساً، حتّى كان قطرُ ما

---

(١) * كما ذكرنا عدد البروج المشاهدة إلى الآن (٨٨) برجاً. والتفاصيل التي أوردها ابن العربي هي من التراث الإنساني القديم [المنقول عن السابقين من غير دليل ولا برهان].

(٢) وهذا من ابن عربي مخالف للعقل أيضاً، وهو رجم بالغيب.

(٣) * هذا تصور قديم، وعدد الكواكب أكبر من هذا العدد بكثير.

في القَدَر الأول ستة أمثال ما في القدر السادس، وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب، وما دون السادس لم يثبتوه في المراتب، بل إن كان كقطعة السَّحاب يسمونه سَحابيّاً، وإلا فمظلماً.

وذُكر في «الكفاية»: أن ما كان منها في القدر الأول، فجرمه مئة وست وخمسون مرة ونصف عشر الأرض. وجاء في بعض الآثار: إن أصغر النجوم كالجبل العظيم.

ويجوز أن يراد بالتزيين ترتيبها على نظام بديع، مستتبعاً للآثار الحسنة، فيراد بـ (الناظرين) المتفكرون المستدلّون بذلك على قدرة مقدرها، وحكمة مدبرها جلَّ شأنه.

والمراد بحفظها من الشيطان: إما منعه من التعرض لها على الإطلاق والوقوفِ على ما فيها في الجملة، وإمّا المنع من دخولها والاختلاط مع أهلها على نحو الاختلاط مع أهل الأرض.

والمراد بالسمع المُسْتَرَقِ، المسموعُ.

و(الشهاب): الشعلة الساطعة من النار المُوقَدَة، ومن العارض في الجوّ. ويطلق على الكواكب، لبريقه كشعلة النار.

والمراد من مدّ الأرض بسطها وتوسعتها، ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها. ولا يلزم ومن ذلك نفي كريتها، لِما أن الكرة العظيمة ـ لعظمها ـ ترى كالسطح المستوي. وقد سبق بيان ذلك.

والمراد بالرواسي في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[1] جبالٌ ثوابتٌ، جمعُ راسية، جمع راسٍ. وسيأتي بيان حكمة إلقاءِ ذلك فيها عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

---

(١) * تعتمد أكثر التفاسير كلمة ألقى بمعنى أوجد، وليس بمعنى القذف والرمي. والمعطيات العلمية تؤيد معنى أوجد، لأن الجبال الحقيقية بدأت بالتشكل بعد مرور مليار سنة تقريباً من تشكل الأرض.

والموزون في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ أي مقدر بمقدار معينٍ، تقتضيه الحكمة. أو من كل شيءٍ مستحسن متناسب. من قولهم: كلام موزون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ إلى آخر الآية، ليس معناه من موضوع كتابنا. والله أعلم.

سُورة النّحل

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

هذه الآية شبيهة بآية (الرعد) التي سبق ذكرها قريباً، ومع ذلك نتكلم في تفسيرها على وجه الإجمال:

معنى ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ ألقى جبالاً ثوابتَ. ومعنى ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي كراهة أن تميد، أو لئلاّ تميد. والميد: اضطراب الشيء العظيم. ووجه كون الإلقاء مانعاً من اضطراب الأرض بأنها كسفينة على وجه الماء، على ما سبق.

وللرازي هنا أسئلة غامضة، ذُكرت مع أجوبتها في تفسير هذه الآية من «روح المعاني».

و﴿ٱلْأَنْهَٰرٌ﴾ سبق بيانها.

ومعنى قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ . . .﴾ أنها معالم يستدلُ بها السابلة، من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب. فقد حكي أن من الناس من يشم التراب، فيعرف بشمهِ الطريقَ، وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة. ولذا سميت المسافة «مسافةً» أخذاً لها من السَّوْف بمعنى الشم، وعليه قول القائل: (إذا الدَّليلُ استَافَ أَخْلافَ الطُّرُقْ). وقد بينتُ ذلك في كتاب «بلوغ الأرَب» عند الكلام على علومهم.

وعن ابن عباس: أنها معالم الطرق بالنهار. وعن الكلبي[2]: أنها الجبال.

---

(١) * لقد تم التعليق على هذا الأمر في الصفحة السابقة.

(٢) هو أبو النضر، محمد بن السائب الكلبي، النسابة الراوية المفسر. ولد في الكوفة وتوفي سنة ١٤٦هـ، وقد كان متروك الحديث.

وعن قتادة[1]: أنها النجوم. وقال ابن عيسى: المراد منها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خطّ أو لفظ أو إشارة أو هيئة. والظاهر ما ذكر أولاً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي بالليل في البر والبحر، والمراد بالنجم الجِنسُ، فيشمُل الخُنَّسَ وغيرها مما يهتدى به. وعن السدّي[2] تخصيص ذلك بالثرّيا والفرقَدَيْن وبناتِ نعش والجَدْي. وعن الفَرّاء تخصيصه بالجدي والفرقدين وعن بعضهم أنه الثريا، فإنه عَلَمٌ بالغلبة لها، ففي الحديث: «إذا طلع النجم ارتفعت العاهة»[3]، وقال الشاعر:

حتّى إذا ما استقرَّ النجمُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ منويّ ومحصود

وعن ابن عباس: أنه سأل النبيَّ، ﷺ، عن ذلك. فقال: «هو الجدي». ولو صحّ هذا، لا يعدل عنه. والجدي: هو جدي الفرقد، وهو ـ على ما في (المغرب) ـ بفتح الجيم وسكون الدال، والمنجمون يصغّرونه فرقاً بينه وبين البرج، ولعله كذلك لغةً.

واستدل على إرادة ما يعم ذلك بما في (اللوامح) عن الحسن: أنه قرأ (وَبِالنُّجُم) بضمتين. وزعم ابن عصفور[4] أن قولهم النُّجُم، من ضرورة الشعر، وأنشد:

---

(١) هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسي البصري، الحافظ المفسر العالم بالعربية والنسب وأيام العرب. ولد سنة ٦١هـ، وتوفي سنة ١١٨هـ. بمدينة واسط التي بناها الحجاج بن يوسف بين الكوفة والبصرة وكانت تسمى: واسط القصب.

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي عالم بالمغازي والسير، عارف بالتفسير. وقد توفي سنة ١٢٨هـ.

(٣) أخرجه الإمام محمد بن الحسن في كتاب «الآثار» ص (١٥٩) وغيره بسند ضعيف كما بينته في «الأحاديث الضعيفة» (رقم ٣٩٦) ـ ن ـ.

(٤) هو أبو الحسن، علي بن مؤمن، الحضرمي الأشبيلي، المعروف بابن عصفور، من أعلام عصره في العربية بالأندلس. ولد سنة ٥٩٧هـ، وتوفي بتونس سنة ٦٦٩هـ. وله آثار منها «المقرب» في النحو، و«الممتع» في التصريف، و«شرح الحماسة».

إنّ الذي قضىٰ بذا قاضي الحكمْ أنْ يَرِدَ الماءَ إذا غابَ النُّجُمْ

وهو نظير قوله: حتى إذا ٱبتلّت حلاقيم الحُلُقْ.

وجعل بعضهم الآيَة أصلاً لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق، فلا بأسَ بتعلّم ما يفيد تلك المعرفة. لكنّ معرفة عين القبلة ـ على التحقيق ـ بالنجوم، متعسر بل متعذر كما أفاده أبو العباس أحمد بن البناء[1]. لأنه إن اعتبر ذلك بما يسامت رؤوس أهل مكة من النجوم، فليس مسقط العمود منه على بسيط مكةَ هو العمود الواقع منه على بسيط غيرها من المدن. وإن اعتبر بالجدي، فلا يلزم من أن يكون في مكة على الكتف أو على المنكب أن يكون في غيرها كذلك، إلاّ لمن يكون في دائرة السمت المارّة برؤوس أهل مكة والبلد الآخر، وذلك مجهول لا يتوصل إليه إلاّ بمعرفة ما بين الطولين والعرضين. وهو شيء اختلف في مقداره، ولم يتعين الصحيح فيه، فلا ينبغي أن يكون الواجب على المصلي إلا تحري الجهة، ومعرفةُ الجهة تحصل بالنجوم وكذا بغيرها مما هو مذكور في محله.

وفي «كتاب الأنواءِ» لابن قتيبة كلام مفيد يتعلق بطرق الاهتداء بالنجوم، وبيان أشهر قبائل العرب معرفةً به.

والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) هو أبو العباس، أحمد بن محمد عثمان الأزدي العدوي، المعروف بابن البناء، رياضي، فقيه، متقدم في عدد من العلوم. ولد في مراكش سنة ٦٥٤هـ، وتوفي فيها سنة ٧٢١هـ. وله تآليف كثيرة في العربية والمنطق والأصول والحساب والفلك.

سُورة الإسراء

قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

المراد من (التسبيح) التسبيح المقالي على أصح الأقوال، وللشيخ ابن القيمّ رسالة مشتملة على أربعين دليلاً من الكتاب والسنّة في إثبات ذلك كما ذكره في كتابه «مفتاح دار السعادة». وفي تفسير هذه الآية من «روح المعاني» كلام مفصل في هذا التسبيح. واختار الرازي في تفسيره سورة الإسراء أن الجمادات وغير المكلّف من البهائم إنما يسبح الله بلسان الحال، ولا تسبيح له بلسان المقال. وهو قول كثير من الأشاعرة.

قال ابن السبكي[1] في «طبقاته» في الجزء الخامس عند ترجمة الرازي:

(إن الرازي احتج على ذلك بما لم ينهض عندنا). ثم ذكر كلاماً طويلاً أثبت التسبيح المقالي، فراجعه إن شئت.

والمقصود أن في هذه الآية دليلاً على أن السماوات والأرض[2] قد أودع الله فيها إدراكاً لا نعقله، وهو مدار تسبيحها المقالي، كما أودع في سائر الموجودات مثل ذلك. فعلى المؤمن أن يؤمن بما ورد.

---

(١) هو تاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي، العالم المؤرخ. ولد في القاهرة سنة ٧٢٧هـ، ثم تحول إلى دمشق وتوفي فيها سنة ٧٧١هـ. ومن آثاره: «طبقات الشافعية الكبرى» و«جمع الجوامع» في الأصول، و«الأشباه والنظائر» في الفقه.

(٢) * يعتبر علماء الطبيعة أن الأرض حية، بسبب طاقتها الحرارية الباطنية والشمسية، فهي في تبدل دائب وحركة مستمرة، ولو ماتت لاختفت البحار والمحيطات والمياه والنباتات، ولتحولت إلى كتلة صخرية يغطيها ركام الغبار والحجارة والحصى.

وليس هذا مما يتعلق بفن علم السماء، فإن الدلائل العقلية لا تدركه.

وفي هذه السورة ـ قريباً من الآخِر ـ قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا. . .﴾ ـ وفيه دليل على أن السماء جِرم. والكِسَفُ: جمع كِسْفَةٍ ـ كقِطْعَةٍ وقِطَعٍ ـ لفظاً ومعنى.

سُورة الكهف

وفيها قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف: ١٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ. . .﴾[1] [الكهف: ٨٦].

فقد أثبت للشمس حركة الطلوع والغروب.

ولعلّ ذلك باعتبار نظر الناظر كما في راكب السفينة، فإنه يرى ما على الساحل متحركاً وليس بمتحرك. وكذلك الغروب في عين حمئة، فإن الناظر يراها كذلك إذا وقف على ساحل البحر.

ولعلّ (ذا القرنين) بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك؛ إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء.

ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾، ولم يقل: «كانت تغرب».

---

(١) * الغروب هو اختفاء الشمس خلف خط الأفق، والشروق ظهورها من خلفه، وتتغير أماكن الغروب والشروق تبعاً لتغير الفصول.

سُورة مَريَم

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

هذه الآية من أدلة كون السماوات أجراماً.

و(الفطر): من عوارض الجسم الصُّلبْ، فإنه يقال: إناء مفطور، ولا يقال: ثوب مفطور، بل مشقوق.

ونسبة التفطر إلى السماوات والانشقاقِ إلى الأرض، إشارة إلى أن السماء أصلب من الأرض.

كذا أفاده بعض اللغويين.

وأهل الفن اليوم لا يعترفون بأجرام علوية غير الكواكب، فإن بصائرهم لا تدركها.

سُورة طٰه

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

في هذه الآية إثبات السماوات، وإثبات جِرْم أعظمَ منها وهو (العرشُ). وقد مَرَّ الكلام على ذلك، ونزيدك بياناً في ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في هذا المقام فنقول:

العرش لغةً: سرير الملك، وفي الشرع سرير ذو قوائم، له حَمَلةٌ من الملائكة فوق السماوات مثل القبة. والدليل على أن له قوائم ما ورد:

«لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، وأكون أول من يصعق، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أأفاق قبلي أم جُوزِيَ بصعقة الطُّور؟»[1]. وعلى أن له حملةً من الملائكة قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أنه مستدير من جميع الجوانب، محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدِّد الجهات. وربما سموه: «الفلك الأطلس» و«الفلك التاسع».

ورده بعضهم بما ثبت في الشرع من أن له قوائم تحمله الملائكة، على ما سمعت. وقد أطنب الإمام تقي الدين أحمد ابن تيميّة في المقالة الأولى من (كتاب العرش) وفي الرد على من قال إنه: «الفلك التاسع»، ونصه:

«إن لقائل أن يقول: لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكروية الشَّكْل: لا بدليل شرعي ولا بدليل عقلي. وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيره من الفلسفة،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ـ ن ـ.

فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع ـ وهو الأطلس ـ محيط بها، مستدير كاستدارتها. وهو الذي يحركها الحركة الشرقية، وإن كان لكل فلك حركةٌ تخصه غير هذه الحركة.

ثم سمعوا من أخبار الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ذكر عرش الله وكرسيّه، وذكر السماوات السبع، فقالوا بطريق الظن:

إن العرش هو الفلك التاسع، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء: إما مطلقاً، وإما أنه ليس وراءه مخلوق.

ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يُحْدِث فيه ما يقدره في الأرض، أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به، أو في العقل الذي زعموا أنه الذي صدر عنه هذا الفلك، وربما سماه بعضهم: الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي اللوح المحفوظ، كما جعل العقل هو القلم. وتارةً يجعلون اللوح العقل الفعّال العاشر الذي لفلك القمر أو النفس المتعلقة به. وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان، يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون، إلى غير ذلك من المقالات التي شرحناها وبيّنّا فسادها في غير[1] هذا الموضع.

ومنهم مَن يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة، ويكون كاذباً فيما يدعيه، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة، تقليداً لهم، أو موافقةً لهم على طريقتهم الفاسدة كما فعل أصحاب «رسائل إخوان الصفا»[2] وأمثالهم.

---

(١) * تتفق الآراء الفلكية الحديثة مع رأي الكاتب، وكل ما ذكروه إما مختلق أو مأخوذ من أساطير الشعوب الشرقية واليهود.

(٢) جماعة سرية نشأت حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، وعملت على جمع الأنصار حولها. وقد تركت آثاراً فلسفية دينية، وعلمية مبسطة دالة على فساد معتقدهم، وباطنيتهم.

وقد يتخيل في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً[1]، كما يتخيل النصرانيّ التثليث الذي يعتقده. وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً، وإنما هو تخيل لِما اعتقده.

وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا، صقلت الرياضة نفوسهم، فتتمثل لهم أعتقاداتهم، فيظنونها كشفاً. وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع.

والمقصود: أن ما ذكروه من أنّ العرش هو الفلك التاسع، قد يقال: إنه ليس لهم عليه دليل، لا عقلي ولا شرعي.

أما العقل، فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن يكون أكثر من ذلك. ولكن دلّتهم الحركات والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه. وما لم يكن لهم دليل على ثبوته، فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلي يكشف العلوي من غير عكس. فاستدلّوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك التدوير وغيره.

فأَمّا ما كان موجوداً فوق هذا، ولم يكن لهم ما يستدلّون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم.

وكذلك قول القائل: إن حركة التاسع مبدأ الحوادث، خطأ وضلال على أصولهم فإنهم يقولون: إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع، وكذلك السابع والسادس.

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه، والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية، فتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية ـ كانت

---

(١) وهذا عند بعض المتصوفة، وبذلك يتقارب معتقدهم مع النصارى.

حركة التاسع جزء السبب كحركة غيره، والأشكال الحادثة في الفلك كمقارنة الكوكب لكوكب في درجة واحدة ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك، وهو مئة وثمانون درجة، وتثليثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك، وهو مئة وعشرون درجة، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعه [وهو] تسعون درجة، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك، [وهو] ستوّن درجة.

وأمثال ذلك من الأشكال إنما حدثت بحركات مختلفة، وكل حركة ليست عن الأخرى. إذْ حركة الثامن التي تخصّه، ليست عن حركة التاسع، وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية، كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها. وكذلك حركة السابع التي تخصّه، ليست عن التاسع، ولا عن الثامن. وكذلك سائر الأفلاك، فإنّ حركة كل واحد التي تخصّه ليست عمّا فوقه من الأفلاك، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش؟ كيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء، لا اختلاف فيه أصلا؟ فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة، لا باعتبار القوابل وأسباب أخر؟

ولكن، هم قوم ضالّون. يجعلونه ـ مع هذا ـ ثلاثمائة وستين درجة، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى، لا باختلاف القوابل، كمن يجيء إلى ماءٍ واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر، لا بحسب القوابل، بل بجعل أحد أجزائة مسِخّناً والآخر مبّرِداً والآخر مُسعداً والآخر مشقياً.

وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال.

وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع ـ رجماً بالغيب، وقولاً بلا علم.

هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة، إذْ في ذلك من النزاع والاضطراب، وفي أدلة ذلك، ما ليس هذا موضعه. وإنما

نتكلم على هذا التقدير. فالأفلاك في أشكالها وإحاطة بعضها ببعض، من جنس واحد. فنسبة السابع إلى السادس، كنسبة السادس إلى الخامس. وإذا كان هناك فلك تاسع، فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع.

وأما (العرشُ) فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوق، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة]. فأخبر أن للعرش حَمَلَةً اليومَ ويومَ القيامة، وأن حَمَلَتَهُ ومَنْ حوله يسبّحون ويستغفرون للمؤمنين.

ومعلوم أن قيام فلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك، لا فرق في ذلك بين كرة وكرة. وإنْ قدر أنّ لبعضها في نفس الأمر ملائكةً تحملها، فحكمه حكم نظيره. قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

فذكر هناك: أن الملائكة تحف مِنْ حوله، وذكر في موضع آخَرَ أن له حملةً، وجمع في موضع ثالث بين حَمَلَتِهِ ومَنْ حوله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧].

وأيضاً فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن عمران بن حصين[1]، عن النبي - ﷺ - أنه قال:

«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض».

---

(١) هو أبو نجيد، عمران بن حصين، الخزاعي، صحابي عالم. أسلم سنة ٧هـ. وتوفي سنة ٥٢هـ.

إلى آخر ما ذكره في هذا المقام من (كتاب العرش)، فراجعه.

والعرش غير الكرسي، لحديث:

«ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض». وفي حديث آخر:

«الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلاّ الله تعالى»[1].

(١) أخرجه الضياء وغيره بسند ضعيف مرفوعاً، ورواه هو وغيره بسند صحيح عن ابن عباس موقوفاً عليه، وهو الصواب كما تقدم صفحة ٣١/ ٢. والشطر الأول رواه أبو جعفر ابن أبي شيبة في «العرش» بسند صحيح عن أبي موسى موقوفاً عليه ـ ن ـ.

سورة الأنبياء

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

---

(١) * يرى علماء الفلك والفيزياء أنه لو رجعنا إلى ما قبل (١٦-١٨) مليار سنة، لوجدنا سحابة دخانية غبارية لا يمكن تصور امتدادها أو حجمها أو كثافتها أو حرارتها، تضم كل ما هو موجود من أجرام ومواد كونية في الفضاء الحالي ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾. وبعد مرور ما يزيد على خمس مليارات سنة أي قبل عشرة مليارات سنة تقريباً، حدث انفجار مروع تناثرت نتيجة له أشلاء السحابة الدخانية مطلقة دوياً لا يوصف ونوراً باهراً خيالياً، وامتلأ الفضاء بالإشعاعات الكونية الموزعة الآن بانسجام فيه وليس لها مصدر محدد تأتي منه، ومعها جزئيات مادية متقدة الحرارة (آلاف الدرجات). فالكون كله كان كتلة واحدة ولعل في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾. وهكذا وبعد الانفجار الكبير أخذت السحابة بالتوسع السريع جداً، إذ توسع الكون خلال المليار سنة الماضية بمقدار (٢) مليون بارسيك (٣,٦٢ سنة ضوئية والسنة تعادل (٩,٤٦ × ١٠)[12] كم) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾. وهكذا انقسمت السحابة الأولى إلى مجموعات كبيرة جداً من المجرات والمنظومات النجمية، والجزء الذي تمكن الإنسان من رصده الآن من الكون يسمى بالمجرة العظمى (Mega-Galaxy) وينتشر عبر مساحة قطرها يزيد بمقدار (٣٠٠,٠٠٠) مليار مرة عن المسافة بين الأرض والشمس والتي تعادل وسطياً (١٥٠) مل. كم، ويعتقد أنها تحتوي على (١٠)[21] نجمة وتتكون أساساً من الهيدروجين (٨٠٪) والهيليوم (١٨٪). وتتمركز (٩٨٪) من المادة في النجوم وفي الكواكب حوالي (٠,١٪)، وبالتالي الفضاء فراغ وظلمة وضمن المجرة العظيمة ثم رصد عشرات الآلاف من المجرات، وكل بضع مجرات لها مركز ثقالة مشترك تدور حوله.

هذه الآية فيها من مهمات فن الهيئة أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ثم فتقها، وإلقاء الرواسي في الأرض أن تميد بهم، وأن كلاً من الشمس والقمر سابح في فلكه. كل ذلك محل تدقيق النظر وإعمال الفكر.

أما مسألة الرتق والفتق، فهي طويلة الذيل لدى الفلاسفة المتقدمين منهم والمتأخرين، وهكذا لدى المتشرعين. فمنهم من يقول: إن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله تعالى بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقر الأرض.

وقال كعب الأحبار[1]: خلق الله السماوات والأرض ملتصقتين، ثم خلق ريحاً، فتوسطتهما ففتَقَهما. وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر، عليها دخان ملتصق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السماوات، وأمسك الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فجعل سبع سماوات. وكذلك الأرض كانت مرتقة طبقة واحدة، ففتقها فجعلها سبع أَرَضين.

ورُوي في معنى الفتق والرتق غير ذلك. فقد أتى ابن عُمَرَ[2] رجلٌ، فسأله عن الآية، فقال: إِذْهَبْ إلى ذلك الشيخ فأسأله، ثم تعالَ فأخبرني. وكان ابن عَباس. فذهب إليه فسأله، فقال: نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً، فتق

---

(١) هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع، الحميري، المعروف بكعب الأحبار، تابعي، أسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان قبل ذلك من علماء اليهود، وهو مصدر كثير من الإسرائيليات والأخبار المتعلقة بمن سلف من الأمم. توفي في حمص سنة ٣٢هـ بعد أن تجاوز المئة من العمر.

(٢) هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي. صاحب رسول الله ﷺ، والعالم الورع المتحري للسنة المستمسك بها. ولد في مكة نحو سنة ١٠ق.هـ، وتوفي فيها سنة ٧٣هـ. وهو آخر من توفي فيها من الصحابة، رضي الله عنهم.

هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآنَ علمتُ أن ابن عباس قد أُوتي في القرآن علماً. صدق ابن عباس هكذا كانت.

وذهب المتأخرون من الفلاسفة إلى أن العالم كله كان قطعة واحدة، فأصابته صدمة، فتفرق إلى ما يرىٰ من الأجرام. وكثر منهم في ذلك القيل والقال.

والكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾، تقدم مراراً عند الكلام على أمثال هذه الآية. واعترض بعض الزائغين مع جوابه، مذكور في التفسير عند الكلام على هذه الآية.

ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[1] أنها محفوظة من البِلىٰ والتغير على طول الدهر. والمراد أنها جعلت محفوظة عن ذلك الدهرَ الطويلَ، ولا ينافيه أنها تطوى يومَ القيامة طَيَّ السجلِّ للكتب.

وإلى تغيّرها ودثورها ذهب جميع المسلمين، ومعظم الفلاسفة، ومنهم من خالف في ذلك.

وأما قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فالفلك في الأصل كل شيء دائر، ومنه فِلكة المغزل. والمراد به هنا ـ على قول كثير ـ هو موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر. وعن الضحاك[2]: هو ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم. وفيه القول باستدارة السماء.

---

(١) * من المعروف وجود إشعاعات قاتلة بعد طبقة الأوزون التي ترتفع فوقنا بمقدار (٢٥-٣٥) كم وسطياً، ومثل هذه الإشعاعات كثيرة في الكون، ومصدرها النجوم والكواكب، والأجرام الصغيرة السابحة في الفضاء، والانفجار الكوني الأول الذي ذكرناه.

(٢) لعله أبو قاسم، الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، المفسر المؤدب. توفي سنة ١٠٥ هـ، وله كتاب في التفسير.

وفي قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ رمز خفي إليه[1]، فإنه لا يستحيل بالانقلاب، وعليه أدلّة جمة. وفي تفسير هذه الآية كلام طويل.

وغاية ما نقول: إن الفلاسفة اليوم من الإفرنج وأهل الأرصاد القلبية والمعارج المعنوية، خالفوا قولَ بعضِ الفلاسفة المتقدمين المخالفَ لقولهم.

وأمّا السلف الصالح، فلم يصحَّ عنهم تفصيل الكلام في ذلك، لِما أنه قليل الجدوى، ووقفوا حيث صح الخبر، وقالوا:

إن اختلاف الحركات ونحوه بتقدير العزيز العليم، وتشبثوا فيما صح وخفي منه بأذيال التسليم. والذي ينبغي القول به أن السماوات على طبق ما صحت به الأخبار النبوية في أمر الثِخَن وما بين كل سماء وسماء.

واستنبط بعضهم من نسبة السباحة للكوكب: أَنْ ليس هناك حامل له يتحرك بحركته مطلقاً، بل هو متحرك بنفسه في الفلك تحركَ السمكة في الماء، إذ لا يقال للجالس في صندوق أو على جذع يجري في الماء: إنه يسبح.

❁❁

ومن الآيات في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

تفسير الآية:

(الطي): ضد النشر، أو الإفناء والإزالة. من قولك: إطْوِ عني هذا الحديث.

وأنكر ابن القيّم في «كتاب مفتاح دار السعادة» إفناء السماء وإعدامها إعداماً صرفاً، وأدّعى أن النصوص إنّما تدل على تبديلها وتغيرها من حال

---

(١) فإنك إذا ابتدأت من آخر الآية، تكون أيضاً (كل في فلك). «المؤلف».

إلى حال ويبعد القولَ بالإفناء ظاهرُ التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، فإن الذي يطوي السجلّ، وهو الصحيفة أو صحيفة العهد، أو حجر يكتب فيه ثم سمي به كل ما يكتب فيه من قرطاس وغيره، لا يفنيه بالطي، بل الكتاب موجود بعده.

وهكذا السماء إذا طويت لا تفنى.

والكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها، فسجلّها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطي حقيقةً.

ثم إن الطيّ لا يختص بسماء دون سماء، بل تطوى جميعها، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

ومعنى ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه، أي في السهولة وعدم التعذّر.

أو في كونها إيجاداً بعد العدم، أو جمعاً من الأجزاء المتفرقة. ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء] ذلك بالفعل لا محالة. والأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها، كالماضية في التحقق. أو قادرين على أن نفعل ذلك.

سُورة الحَجّ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ . . .﴾ [الحج: ١٨].

المراد بـ (السجود) دخول الأشياء تحت تسخيره ـ تعالى ـ وإرادته، وقابليتها لما يحدث فيها. وفي «مفردات الراغب»[1]: «السجود ـ في الأصل ـ التطامن والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته، وهو عامّ في الإنسان والحيوان والجماد.

وذلك ضربان: سجود باختيار يكون للإنسان وبه يستحق الثواب، وسجود بتسخير يكون للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات. وخص بالشريعة من الركن المعروف من الصلاة، وما جرى مجراه من سجود التلاوة وسجود الشكر» انتهى.

وأفرد الشمس والقمر والنجوم وما بعدها بالذكر، لشهرتها، واستبعاد ذلك منها بحسب الظاهر في بادىء النظر القاصر، أو لأنها قد عبدت من دون الله، إمّا باعتبار شخصها، أو جنسها. فالشمس عبدتها حِمْيَرٌ، والقمرُ

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم المعروف بالراغب الأصفهاني (كوفي ٥٠٢هـ = ١١٠٨م): أديب، من الحكماء العلماء. من أهل أصبهان سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالغزالي له كتاب في التفسير لم يكمل، ومنه أخذ الإمام البيضاوي غالب تحقيقاته.
ومن كتبه: «المفردات في غريب القرآن» رتبه على حروف المعجم معتبراً أوائل الحروف الأصلية دون الزوائد، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»، و«تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» وغيرها.

عبدته كِنانةٌ، وعبدَ الدَّبَرانَ من النجوم تَميمٌ، والشِعرىٰ لَخْمٌ وقريش، والثريّا طَيّءٌ وعُطاردَ أَسَدٌ، والمِرْزَمَ ربيعةُ[1].

وعبد أكثر العرب الأصنامَ المنحوتة من الجبال. وعبدت غَطَفانُ العُزَّىٰ، وهي سَمُرَةٌ واحد السَّمُر. ومن الناس من عبد البقر.

فهذه الآية فيها دليل على أن الأجرام العلوية، والأجرام السفلية، لها عبادة مخصوصة لرب العالمين، جارية على حسب إرادة مبدع السماوات والأرَضين.

❁❁

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[2].

المراد بإمساكها حفظُ تماسكها بقدرته ـ تعالى ـ بعد أن خلقها متماسكة آناً فآناً، وعدم تعلق إرادته بوقوعها قِطَعاً قِطَعاً، أو بالجاذبية التي يقول بها متأخرو الفلاسفة، وهي أيضاً من آثار قدرته.

والمعروف من مذهب سلف المسلمين أن السماءَ غير الفلك، وأنها ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته وقدرته التي لا يتعاصاها شيء، لا استمساكها بذاتها.

---

(١) هذا في العرب، وأما عبادتهم من الأمم الأخرى، فحدث عنها ولا حرج.

(٢) * تشكل النجوم والكواكب مجموعات كبيرة (مجرات) تربطها مع بعضها قوى جاذبة مركزية، فتتحرك في تناسق وانتظام. [وكل ذلك بأمر الله سبحانه].

سُورة المُؤمنونَ

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

الطرائق: جمع طريقة، بمعنى مطروقة، وهي السماوات السبع. من طرق النعل والخوافي إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض. فهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]. ولكل من السبع نسبة وتعلق بالمطارقة، فلا تغليب. أو جمع طريقة بمعناها المعروف، وسميت السماوات بذلك، لأنها طرائق الكواكب في مسيرها.

وهذا عين مذهب الفلاسفة المتأخرين القائلين بالجاذبية ودوران الكواكب على الشمس، أو طرائق الملائكة في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد. أو سميت طرائق لأن لكل سماء طريقةً وهيئةً غير هيئة أخرى؛ لأن الله تعالى أودع في كل سماء ما لم يودعه في الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ يراد منه بالخلق المخلوقُ، وهو السماوات السبع. أي: وما كنا عنها غافلين، بل نحفظها عن الزوال والاختلال وتدبير أمرها.

ففي هذه الآية دليل وأيّ دليل لأهل فن الهيئة الجديدة.

سُورة النُّور

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾(١) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾(٢).

---

(١) * تتكون السحب نتيجة لتكاثف أو لتسامي (تحول البخار إلى جليد مباشرة) بخار الماء في الجو، وسبب ظهورها دفع الهواء المحمل بالبخار نحو الأعلى فيتبرد البخار ويتكاثف، ويخضع شكل الغيوم إلى طبيعة حركة الهواء الذي يسوق معه بخار الماء: فإن سيطرت الحركة الريحية الأفقية ظهرت السحب المتطبقة القليلة السماكة، وإن سيطرت حركة الرياح المتموجة ظهرت السحب الاكمية الكتلية المتموجة، أما عندما تسيطر الرياح المدفوعة رأسياً نحو الأعلى فتظهر السحب الركامية المتصاعدة، وهذا النوع هو الذي أشارت إليه الآيات الكريمة. وتتميز بارتفاعها الشاقولي الكبير، إذ تصل سماكتها إلى عدة كيلومترات وقد تصل إلى أكثر من (١٠ كم)، وهي عادة على شكل كتل جبل مرتفعة لماعة القمم وداكنة القاعدة وتتميز بحركة صعود هوائية عنيفة (١٠ م/ث) فتبرد قطرات الماء أو جزئيات البخار بشدة في الأعلى (- ١٥، - ٣٠درجة) وتتحول إلى نوى جليدية تحتل قمم السحاب ويزداد حجمها بسبب وصول كميات إضافية من بخار الماء من الهواء، فتتحول إلى حبيبات صلبة أكبر فتهبط إلى الأرض. وفي مثل هذه السحب خاصة توجد ساحة كهربائية نشطة تتكون من شحنات موجبة في أعلى السحاب وسالبة في أسفلها وعلى سطح الأرض، فيحدث تفريغ كهربائي بينهما فتنطلق شرارة البرق ويدوي صوت الرعد.

(٢) لا يخفى أن بين قوله: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وقوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جناساً تاماً، فهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. «المؤلف»

تفسير هذه الآية يحتاج إلى كلام طويل، ولسنا بصدده، فإنه مذكور في التفسير. وما يخصّنا منه، تسبيح الأجرام العلوية والأجسام السفلية والمخلوقات السماوية والأرضية، وبيان المراد بصلواتهم.

أما التسبيح، فليس المراد به التسبيح الحاليّ، وهو الدِلالة على الخالق، إذ لا معنى حينئذٍ لقولِهِ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي دلالته، بل المراد به التسبيح المقالي.

والمراد بالصلاة الدعاءُ والابتهال. وتقديمها على التسبيح في الذِكر، لتقدمها عليه في الرتبة. أو المراد بالصلاة والتسبيحِ ما ألهمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كلَّ واحد من تلك المخلوقات من الدعاء والتسبيح المخصوصَيْن به ولا بُعْدَ في هذا الإلهام، فقد ألهم سبحانه كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العقلاء. وهذا مما لا سبيل إلى إنكاره أصلاً. كيف لا وإن القنفذ مع كونه أبعدَ الحيوانات من الإدراك قالوا: إنه يحس بالشمالُ والجَنُوب قبل هبوبهما، فيغيّر المدخل إلى جحره.

وقد تقدم أحسن كلام مما يناسب المقام في آية سورة الإسراء.

وأما قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، فالبَرَد معروف، سمي بَرداً لأنه يبرد وجه الأرض، أي يقشره. مِنْ: بردت الشيء بالمبرد.

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذه الجبال. فعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين:

أن المراد بالسماء المظلة، وبالجبال حقيقتها. قالوا:

إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً من بَرَد[1]، كما خلق في الأرض جبالاً من حجر. وليس في العقل ما ينفيه من قاطع، فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها.

---

(١) * لا توجد جبال برد في الجو أو السماء، بل توجد سحب تحتوي عليه.

والفلاسفة لهم غير هذا الرأي في البَرَد ونزول الوَدْق، أعني المطر. وهو كلام وصلت إليه أيدي أذهانهم، لا يعوَّل عليه عند أهل الشريعة. وهو مذكور في كتب التفسير، وكتب علم الطبيعة.

غير أن أهل الأرصاد اليوم كشفوا في القمر جبالاً ووهاداً وأودية[1]، وهكذا الشمس وسائر السيارات، وظنوا أن فيها مخلوقات نحو سكنة الأرض، وزعموا أن فيها بحاراً وأنهاراً.

فلعلّ جبال البَرَد المذكورة في الآية من تلك الجبال التي في هاتيك[2] الأجرام فيوصله الله إلى الأرض بكيفية لا ندركها، وهو على كل شيء قدير.

❁ ❁

(١) وقد نزل الناس القمر، ووجدوه من خَلْقِ الله، وسبحان الله القادر.

(٢) لا توجد مثل هذه الجبال في الكواكب المعروفة، لأنها فقيرة جداً ببخار الماء.

سورة الفرقان

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

المراد بالسماءِ المظلّةُ لنا، وبالغمامِ السَّحابُ المعروف. أي تشقق السماء بسبب طلوع الغمام منها، ولا مانع أن تشقق به كما يشق السنام بالشفرة، والله تعالى على كل شيء قدير. وعن مجاهد: إنه الغمام الذي يأتي الله تعالى فيه يوم القيامة كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

والمراد بالسماء ما يعم السماوات كلها، وتشقق سماءً سماءً. وكيفية نزول الملائكة منها، مذكورة في التفسير.

❁❁

ومن آيات هذه السورة، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

دلت هذه الآية على أن الشمس[1] متحركة، لأن الظلّ تابع لها، لأنه يكون من مقابلة كثيف ـ كجبل أو ماء أو شجر ـ للشمس عند ابتداء طلوعها. ولو شاء لجعله ساكناً. وذلك بأن لا يجعل سبحانه للشمس عليه

(١) * الشمس حركتها ظاهرية والأرض هي المتحركة، وحركتها هي التي تحدد موقعها من الشمس، وتبدو الشمس تبعاً لذلك كأنها تتحرك من المشرق إلى المغرب فيتغير طول ظل الأشياء نتيجة لما ذكرناه. فعند المسامتة يكون الظل أقصر ما يمكن ويبلغ أقصى طول له في الشروق والغروب. وسكون الظل معناه توقف الأرض عن الحركة.

(أي على نسخه) سبيلاً، بأن يطلعها ولا يدعها تنسخه، أو بأن لا يدعها تغيّره باختلاف أوضاعها بعد طلوعها.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، معناه: جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهوره للحس.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: ثم أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدّاً عند إيقاع شعاع الشمس موقعه، أو بإيقاعه كذلك، ومحوناه على مهل قليلاً قليلاً بحسب مسير الشمس. وفيه دليل على كروية الأرض، لأنها لو لم تكن كرويةً، لتساوت الأقطار في الأفياء والظِلال. مع أن كثيراً من الأقطار يكون فيه ليل، وفي أقطار أخرى نهار[1].

ولأرباب الهيئة الجديدة أن يقولوا: إن الظلال تابع لحركة الشمس على حسب ما يراه الرائي. وإلّا، ففي الحقيقة أن الأرض هي المتحركة على مركزها، وهي الشمس. ولا بِدْعَ أن تكون الشمس دليلاً على الظل، وإن كانت الحركة للأرض.

❁ ❁

ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾[2].

سبق الكلام على مثل هذه الآية، وبَيّنّا المراد من الأيام الستة والاستواء على العرش والعرش بما فيه كفاية.

---

(١) وهذا تنكره فئة ضالة، بغير علم ولا كتاب منير.

(٢) * من الملاحظ أن الله لم يحدد في القرآن الكريم معنى اليوم، فهل المقصود اليوم الأرضي أم سواه، مع أنه بالنسبة نراه يشير مرة إلى السنة الأرضية ﴿مما تعدون﴾ وفي آيات أخرى لا يحدده كاليوم. وليس من المعروف هل الله وضع قوانين ظهور الأرض وسواها من الأجرام خلال الستة أيام ثم جعلها تتطور حسب قوانين الطبيعة المعروفة التي تحتاج إلى زمن طويل، وهو ما يدل عليه تطور الأرض وسواها في الطبيعة. وبالطبع أن الله على كل شيء قدير.

سُورة الشُّعرَاء

قال الله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾[1].

(الكسف): القطع، جمع كِسْفَة كَقِطْعَةٍ.

والمراد بـ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا المُظِلّة، وهو الظاهر، وإمّا السحاب.

وأهل الهيئة اليوم يقولون:

كثيراً ما تقع أحجار من السماء، أي من الأجرام العلوية. وهي محفوظة في متاحفهم، ولهم في ذلك كلام طويل مذكور في كتب الطبيعة[2].

---

(١) * أرجح هنا أن المقصود لدى المشركين هو سقوط قطع من السماوات السبع وليس المقصود سقوط النيازك، فهي تشاهد يومياً في الليل، لأن في الآية تحد واضح لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

(٢) وهي معروفة، مشاهدة ويرقى بعضها إلى ملايين السنين.

سُورة النَّمل

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1].

ربما استدلّ علماء الهيئة المتأخرون على ما ادّعوه من حركة الأرض اليومية والسنوية فإنهم يقولون:

إن الرائي يرى الجبال ساكنة، وهي متحركة أشد الحركة.

والمفسرون يرون غير هذا الرأي، ويقولون: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي ثابتةً في أماكنها لا تتحرك ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: وترى الجبال رأيَ العين ساكنةً، والحال أنها تمر في الجو مرّ السحاب الذي تسيّره الرياح سيراً حثيثاً، وذلك يوم القيامة وخراب العالم، لا أنها تمر مرّ السحاب اليوم. وإلا لما كان بتخصيص الجبال لذلك وجه، فإن الجبال والأنهار والفلوات والبراري كذلك، والله يُحق الحق، وهو يَهدي السبيل.

---

(١) * إن الجبال جزء من الأرض المتحركة في مدارها بسرعة (٢٩ كم/ ث)، فهي تتحرك مع حركة الأرض، وفي يوم القيامة تصبح الجبال قاعاً صفصفاً ولن تكون موجودة.

سُورة العَنكبوت

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

المراد بتسخير الشمس والقمر جريانهما على قانون واحد لا يتغير.

فهما آيتان عظيمتان من آيات الله خاضعتان لِما يراد بهما من مصالح العالم واختلاف الأزمنة وتربية النبات وإنضاج الثمار والحبوب وإضاءة العالم.

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون.

---

(١) * نتفق مع المؤلف فيما جاء به، ولكن من المعروف كذلك أن الشمس مسخرة لمد الأرض بالحرارة والضوء، والقمر بالنور.

سُورة الرُّوم

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾[1] وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

تفسير هذه الآية قد مرَّ مراراً في تفسير مثلها. فقوله:

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

أراد ـ بالسماء المُظِلّةَ، أو السحاب، والله سبحانه وتعالى ينزل المطر من السحاب المتكوّن من الأبخرة المتصاعدة كما ذكر الطبيعيون، وعلى ذلك قول الهُذَليّ:

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم ترفَّعَتْ متى لَجُجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ تَئيجُ

ومعنى ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بقوله تعالى: «قُومَا» وبإرادته عزّ وجلّ.

والتعبير عنها بـ «الأمر» للدِلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤُهما لأنّه قد بيّن حاله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس.

فإن ذلك من متمّمات إنشائهما، وإن لم يصرح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

---

(١) * أوضحنا سابقاً كيفية ظهور البرق، الذي يبشر ظهوره غالباً بسقوط أمطار غزيرة.

ولا قيامهما وبقاؤهما على ماهما علية إلى أجلهما الذي أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

وذهب الرازيُّ إلى:

أن القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول، إلى آخر ما قال.

وما ذهب إليه أهل الهيئة المتأخرون: من أنّ قيام العالم العلوي والسفلي بالجاذبية، لا يخالف الآية الكريمة.

فالله سبحانه هو الذي أودع تلك الجاذبية، وبأمره كانت.

❁❁

سُورة لقمَان

قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ...﴾[1] [لقمان: ١٠].

أي خلقها بغير عَمَدٍ مرئيّة على التقييد للرمز إلى أنه تعالى عمدها بعَمَدٍ لا تُرى، وهي عمد القدرة. وعلى قول علماء الهيئة في زماننا: عمد الجاذبيّة، ولا يخرج ذلك عن قدرة مودعها جلّ جلاله.

وقد مرَّ مثل هذا فيما سبق مراراً.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية.

وليس في العقل الصريح، والنقل الصحيح ما يأبى إثبات الجريان لكلٍ من النيرين، ومنتهى هذا الجري العام يوم القيامة.

---

(١) * أشرنا إلى ذلك سابقاً.

(٢) * في الآية إشارة واضحة إلى كروية الأرض وإلى انقاسمها إلى جزئين: مضيء أي نهار، ومظلم أي ليل.

سُورة السَّجدَة

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾[1].

قد سبق المراد بالأيام الستة، والكلام على العرش، وبحث الاستواء.

❁❁

(١) * نلاحظ هنا أن الله جل وعلا حدد معنى السنة ووضح أنها تعادل السنة الأرضية، بينما لم يحدد ذلك في مواضع أخرى، ولم يحدد مفهوم اليوم.

سُورة سَبَأ

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قد ذكرنا سابقاً أن (الكسف) هي القطع، وأنّ المراد من السماء: إما المُظِلّة، وإمّا السحاب، فقد أمطر الله سبحانه وتعالى على بعض الأمم السابقين حجارة من السماء.

سُورة فَاطِر

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

سبق الكلام في معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر، وبيان المراد بجريانهما لأجل مسمى، فلا حاجة إلى الإعادة.

وقال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[1].

المراد (بالزوال): من الناس مَنْ قال: «سقوطهما». فمن الفلاسفة من كان يقول: إن السماء والأرض لم تزالا هابطَتيْن، ومنهم من كان يقول: لم تزالا صاعدتين في هذا الفضاء الذي لا منتهى له. وكلا القولين باطلٌ، فإن الله تعالى قد أمسكهما بقدرته، أو بالجاذبية التي هي من آثارها.

وبعض المتشرعين كان يقول: إن الله أمسكهما عن الحركة، فليستا بمتحركتيْن.

وأعدل الأقوال ما يوافق عليه العقل الصريح، والنقل الصحيح.

---

(١) * في الآية إشارة واضحة إلى دقة ترتيب الأجرام السماوية والأرض بحيث لا تتصادم أو تتقارب بشكل يخل من بناء الكون. إن مثل هذا الخلل سيتم في يوم القيامة، يوم يسقط القمر على الشمس... إلخ.

سُورة يس

قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآية: جَرَيان الشمس لمستقرّ، وتقدير القمر منازل، فنتكلم عليهما: أمّا جريان الشمس[1] لمستقرّ، فمعناه: لحدّ معينّ، تنتهي إليه من فَلَكها في آخر السنة. أو لمنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب؛ لأنها تتقصّاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع، فذلك حدّها ومستقرها، لأنها لا تعدوه. أو لحدٍّ لها من مسيرها كل يوم في رأي عيوننا، وهو المغرب. أو لِكَبِد السماء ودائرة نصف النهار. أو لاستقرار لها ومكثٍ في كل برج من البروج الاثني عشر، على نهج مخصوص. أو تجري لبيتها، وهو برج الأسد، واستقرارها عبارة عن حسن حالها فيه، وهذا غير مقبول إلا عند أهل الأحكام[2].

---

(١) * للشمس حركة مكانية محورية، وقد يكون المؤلف مصيباً فيما ذكره.
والقمر لا يظهر كل ليلة بنفس المقدار بل يتدرج من الظلمة الكاملة إلى الهلال ثم إلى البدر...إلخ. وهو ما يعرف بمنازل القمر أو مواقعه بالنسبة للأرض والشمس. ويدور القمر حول الأرض في مدة (٢٧ يوماً و٨ ساعات)، وخلال ذلك تدور الأرض حول الشمس مقدار (٢٧) درجة، ولكي يعود القمر إلى مكانه الأصلي بالنسبة للأرض يجب أن يدور (٢٧) درجة وهي المسافة التي قطعتها الأرض حول الشمس، لذا فمدة دوران القمر الظاهرية بالنسبة لنا (٢٩,٥ يوماً).

(٢) أي أصحاب التنجيم (الأثري).

ولا يخفي حكمهم على محققي أهل الإسلام. أو المعنى: تجري إلى وقتٍ لها لا تتعدّاه، وعلى هذا «مستقرّها» انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا. وفي الحديث عن أبي ذرّ، قال: كنت مع النبي، ﷺ، في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله تعالى ورسوله أعلم. قال: «تذهب لتسجد فتستأذن للرجوع، فيؤذن لها، ويوشِك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها، ارجِعي من حيثُ جئتِ، فتطلع من مغربها. فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾»[1]. وفي رواية: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم. قال: «إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرّها تحت العرش، فتخرّ ساجدة»، الحديث.

قال النووي: قال جماعة بظاهر الحديث. قال الواحدي: وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم، استقرت تحت العرش إلى أن تطلع.

ثم قال النووي: وسجودها بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها.

والأمر في ذلك مشكل إذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش، فإنه لاخلاف في أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين، والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين، وبين الليل والنهار إختلافٌ ما في الطول والقصر عند خط الإستواء. وفي بعض البلاد قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب. وفي عرض تسعين لا تزال طالعة ما دامت في البروج الشمالية، وغاربة ما دامت في البروج الجنوبية، فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على ما فُصِّلَ في موضعه.

والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها، وإلا كانت ساكنة، بناءً على أن غروبها في أفقٍ طلوعٌ في غيره.

---

(١) أخرجه البخاري [الفتح الباري: ٧٤٢٤] ومسلم [١/١٣٨-١٣٩]، و«صحيح الجامع الصغير» ٧٨٢٨] ـ ن ـ.

وفي «رُوح المَعاني»:

(والذي يخطر بالبال، في حلّ ذلك الإشكال، والله أعلم بحقيقة الحال ـ أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة، كما ينبئ عن ذلك قوله ـ تعالى ـ الآتي: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ حيث جيء بالفعل مسنداً إلى ضمير جمع العقلاء، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤] لنحو ما ذُكر. ويدل عليه ظاهر ما رُوي عن أبي ذرّ، من أنها تسجد وتستأذن، فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال).

ثم قال: (والشواهد من الكتاب والسنّة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز، مما لا يكاد يحصى كثرةً. وبعضه يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص. وبعضه يدل على ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم، أو بالمقايسة، إذْ لا قائل بالفرق. ومتى كانت كذلك، فلا يبعد أن تكون لها نفس ناطقة كنفس الإنسان. بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً.

و(الحكماء المتقدمون) أثبتوا النفس للفلك، وصرح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضاً، وقالوا: كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير، حي ناطق. والأنفس الناطقة الإنسانية إذا كانت قدسية، قد تنسلخ عن الأبدان، وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى، كما يتمثل جبريل[1] ويظهر

---

(١) فيه حديث عمر بن الخطاب قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ـ الحديث ـ وفي آخره... ثم قال لي يا عمر: أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». أخرجه مسلم (١/ ٢٩) وأحمد (٢/ ١٠٧) [٥٨٥١] وزاد في رواية في آخره) «وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية»=

بصورة «دحيةَ»[1] أو بصور بعض الأَعراب[2] كما جاء في صحيح الأخبار،

=وإسناده صحيح. ورواه النسائي (٢/ ٢٦٦) [صحيح سنن النسائي: ٤٦١٨] من حديث أبي هريرة وأبي ذر معاً وزاد في آخره:

«ثم قال: لا والذي بعث محمداً بالحق هدى وبشيرا، ما كنت بأعلم به من رجل منكم وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي» وإسناده صحيح، وطعن الحافظ ابن حجر في صحة هذه الزيادة، وأجاب عن ذلك أبو الحسن السندي في حاشيته على النسائي، فليراجعه من شاء.

وفيه عن عائشة قالت:

«رأيت رسول الله ﷺ واضعاً يديه على مَعْرَفة فرس وهو يكلم رجلاً، قلت: رأيتك واضعاً يديك على معرفة فرس دحية الكلبي، وأنت تكلمه، قال: ورأيت قالت: نعم: قال: ذاك جبريل عليه السلام، وهو يقرئك السلام، قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، جزاه الله خيراً من صاحب ودخيل، فنِعْمَ الصاحب ونِعْمَ الدخيل. قال سفيان: الدخيل الضيف».

أخرجه أحمد (٦/ ٧٤-٧٥ و ١٤٦) [٢٤٤٥٣ و٢٥١١٢]: ثنا سفيان بن عيينة عن مجالد عن الشعبي عن أبي سلمة عن عائشة به. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٤٦) من طريق أخرى عن مجالد به إلا أنه قال «مسروق» بدل «أبي سلمة» ومجالد ضعيف، ولكن له طريق أخرى عند ابن سعد (٤/ ١٨٤) عن القاسم بن محمد عنها يتقوى بها ـ ن ـ.

(١) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي. صاحب رسول الله ﷺ. شهد معه كثيراً من المواقع، وتوفي في (المزة) إحدى ضواحي دمشق سنة ٤٥هـ.

(٢) قوله: أو بصورة بعض الأعراب.

لم أقف الآن على حديث يشهد لذلك، وقد قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٠٧) في شرح قوله في حديث عمر المتقدم: «حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه»: «والظاهر أنه أراد بذلك المبالغة في تعميه أمره ليقوي الظن بأنه من جفاة الأعراب ولذلك تخطى الناس حتى انتهى إلى النبي ﷺ كما تقدم، ولهذا استغرب الصحابة صنيعه».

قلت: فلعل هذا الشرح من الحافظ هو منشأ الظن أنه كان يأتي بصورة بعض الأعراب، وقد علمت مما سبق أنه في هذه الحادثة كان في صورة دحية الكلبي. والله أعلم ـ ن ـ.

حيث يشاء الله، مع بقاءِ نوعِ تعلّقٍ لها بالأبدان الأصلية يتأتّى معه صدور الأفعال منها، كما يحكى عن بعض الأولياء أنهم يرون في وقت واحد في عدة مواضع. وما ذاك إلا لتجرّد قوة أنفسهم، وغاية تقدّسها، فتمثل وتظهر في موضعٍ وبدنها الأصلي في موضع آخَرَ:

لا تَقُلْ: دارُها بشَرْقيِّ نَجْدٍ كلُّ نَجْدٍ للعامِرِيَّةِ دارُ

وهذا أمر مقرر عند (الصوفية)، مشهور فيما بينهم. وهو غير طي المسافة وإنكار من ينكر كلّاً منهما عليهم، مكابرة لا تصدر إلاّ عن جاهل أو معاند.

وقد عجب العلامة التفتازاني[1] من بعض فقهاء أهل السنة حيث حكم بالكفر على معتقدِ ما رُوي عن إبراهيم بن أدهم[2] أنهم رأوه بالبصرة يومَ التروية ورُئِيَ ذلك اليومَ بمكة. ومبنَاه زَعْمُ أن ذلك من جنس المعجزات الكبار، وهو مما لا يثبت كرامة لولي. وأنت تعلم أن المعتمد عندنا جواز ثبوت الكرامة للولي مطلقاً، إلا فيما يثبت الدليل عدم إمكانه، كالإتيان بسورة مثل إحدى سُوَر القرآن. وقد أثبت غير واحد تمثيل النفس وتطورها لنبينا، ﷺ، بعد الوفاة، وادّعى أنه يُرى في عدّة مواضع في وقت واحد مع كونه في قبره يصلي. وصح أنه، ﷺ، رأى موسى يصلّي في قبره عند الكثيب الأحمر[3]، ورآه في السماء[4]، وجرى بينهما ما جرى فى أمر

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني سعد الدين، أحد الأعلام في العربية والبيان والمنطق والأصول. ولد بتفتازان سنة ٧١٢هـ، وتوفي في سمرقند سنة ٧٩٣، ودفن في سرخس. ومن آثاره: «المطول» في البلاغة، و«تهذيب المنطق» و«حاشية على شرح العضد على مختصر ابن الحاجب» في الأصول.

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي، الزاهد المشهور. توفي نحو سنة ١٦١هـ وفي أخباره اختلاف.

(٣) رواه مسلم والنسائي وأحمد وأبو نعيم ـ ن ـ.
[انظر «صحيح سنن النسائي ـ باختصار السند» ١٥٣٧-١٥٤٣ للألباني ـ بإشرافي، و«مسند الإمام أحمد» ٣/ ١٤٨ (١٢٤٨٨) و٣/ ٢٤٨ (١٣٥٧٨)].

(٤) هو قطعة من حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما.

الصلوات المفروضة. وقد رأى، ﷺ، ليلةَ أُسْرِيَ به جماعةً من الأنبياء غير موسى في السماوات مع أن قبورهم في الأرض، ولم يقل أحد إنهم نقلوا منها إليها. وليس ذلك ممّا ادّعى الحِكميون استحالته من شغل النفس الواحدة أكثر من بدن واحد، بل هو أمر وراءه كما لا يخفي على من نوّر الله بصيرته.

فيمكن أن يقال إن للشمس نفساً مثل تلك الأنفس القدسية، وأنها تنسلخ عن الجِرم المشاهد المعروف مع بقاء نوع من التعلق لها به، فتعرج إلى العرش، فتسجد تحته بلا واسطة، وتستقيم هناك، وتستأذن. ولا ينافي ذلك سير هذا الجِرم المعروف وعدم سكونه حسب ما يدعيه أهل الهيئة وغيرهم. ويكون ذلك إذا غربت وجاوزت الأفق الحقيقي، وأنقطعت رؤية سكان المعمور من الأرض إيّاها، ولا يضرّ فيه طلوعها إذ ذاك في عرض تسعين ونحوه؛ لأن ما ذكرناه من كون السجود والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء الله تعالى، لا ينافي سير الجسم المعروف، بل لو كان نصف النهار في خط الاستواء لم يضرّ أيضاً. ويجوز أن يقال: سجودها بعد غروبها عن أُفق المدينة، ولا يضرّ فيه كونها طالعةً إذ ذاك في أفق آخر، لِما سمعت. إلاّ أن الذي يغلب على الظن ما ذُكر أوّلاً» انتهى كلامه.

ثم ذكر هذياناً آخر ادّعاه بعض المتصوفة من زيارة الكعبة لبعض الأولياء وهي في موضعها. وادعى الشيخ محيي الدين أن بينه وبينها مراسلات ومكاتبات. وكل ذلك لم يثبت في الشريعة. وهو دعوى بلا دليل، فلا تلتفت إليه وإن جلّ قائله[1].

والذي قاله المتأخرون من الفلاسفة، أهل الفن الجديد المتشرّعين، أن هذا الجِرم العظيم مركز للسيارات، ويُحْسَبُ ـ بخفاء حركته ـ ثابتاً. وليس كذلك؛ لأن الحركة لازمة له.

---

(١) لا والله ما هو بجليل ولا من أهل التقدير والاحترام.

وقد حققوا حركة الشمس من الشامات المرئية في قرصها، بواسطة الآلة الرصدية التي يشاهَدُ بها أحوال الأجرام الفلكية، فظهرت لهم أوضاع مختلفة في شعاعها وشامات[1] سُودٌ في قرصها. وهذه الشامات تبدو طرفها الشرقي، وتغيب في طرفها الغربي في نحو أربعة عشر يوماً. وبعد مثل هذه المدة تظهر من طرفها الشرقي. وهذه تدل على أنها ـ مع الشامات ـ تتمّ الدورة في سبعة وعشرين يوماً واثنتيْ عشرة ساعة وعشرين دقيقة. فإذا نقص من ذلك يوم واثنتان وعشرون ساعة واثنتا عشرة دقيقة للدور السنوي للأرض، بقي لدور الشمس[2] على محورها خمسة وعشرون يوماً وأربع عشر ساعة وثمان دقائق. وبهذا يثبت أنها جِرم كُرِيٌّ ذو قطبين، مثل الأرض، يدور على مركز آخر.

قالوا: وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ﴾ [يس: ٣٨] فإنه يدل على دوران الشمس على مركز آخر، ويقال: إنه كوكب من كواكب الثريا، أو يقال: معنى جريانها لمستقر أنها تجري على مركزها ومحورها.

فإن ثبت هذا في الشريعة، فهو خير من تلك الوساوس والخيالات السابقة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجري المفهوم من «تجري» ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم. وذكر بعضهم في حكمة جريها حتى تسجد كل ليلة تحت

---

(١) * البقع الشمسية هي بقع مظلمة داكنة مؤقتة تظهر في قرص الشمس وتحيط بها غازات متألقة. وتظهر ضمن الحقول المغناطيسية القوية ولها شكل قمعي، وطول حياتها متباينة من بضع أيام إلى عدة شهور، ومساحاتها كذلك مختلفة بشدة وقد تصل حرارتها في البقع الكبيرة إلى (٣٥٠٠-٤٠٠٠) درجة، وللبقع الشمسية دورية تعادل (١١) سنة.

(٢) * تدور الشمس حول نفسها دورة محورية تعادل ٢٥ يوماً و٣٨ دقيقة في المنطقة الاستوائية، وتزداد كلما اقتربنا من القطبين الشمسيين لتصل إلى (٣٤) يوماً.

العرش تجددَ اكتساب النور من العرش، ويترتب عليه في عالم الطبيعة والعناصر ما يترتب.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾: تقدم ذكر المنازل، و﴿عاد﴾ أي صار ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ هو عود عذق النخلة العتيق الذي مرّ عليه زمان يبس فيه. والقمر في أواخر سيره وقربه من الشمس ـ في رأي العين ـ كالعرجون القديم، ووجه الشَّبَهِ الاصفرار والدقةُ والاعوجاجُ. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي يتسخر ويتسهل أو يحسن ويليق بالحكمة ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حدّه الله له، وجعله مظهراً لسلطانه؛ فإنه تعالى جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النَّيِّرَيْنِ ـ الشمس والقمر ـ حدّاً محدوداً، ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه، فلا يدخل أحدهما في سلطانه الآخر، بل يتعاقبان إلى أن يأتي أمر الله. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي لا يدرك القمرُ الشمسَ فيما جعل لها، أي ولا آية الليل سابقة آية النهار وظاهر سلطانه في وقت ظهور سلطانها ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الفلك: مجرى الكواكب، سمي به لاستدارته كفلكة المغزل وهي الخشبة المستديرة في وسطه، وفلكه الخيمة وهي الخشبة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة. و﴿يَسْبَحُونَ﴾ أي يسيرون فيه بانبساط.

وكل من بسط في شيء فهو يسبح فيه، ومنه السباحة في الماء وهذا المجرى في السماء.

ولا مانع عندنا أن يجري الكوكب بنفسه في جوف السماء، وهي ساكنة لا تدور أصلاً. وتمام الكلام في التفسير.

وهذه الآية من أعظم ما يتمسك به المتشرّعون من علماء الهيئة الجديدة، والله ولي التوفيق.

سُورة الصَّافّات

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥(١) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

الكلام على هذه الآية قدر مرّ مثله بمواضع، فلا حاجة إلى إعادته. وفي تفسير «روح المعاني» عند الكلام عليها بيان مفصل، من أراده فليرجع إليه.

ومعنى ﴿دُحُورًا﴾: الطرد والإبعاد، أي للدحور. ومعنى ﴿وَاصِبٌ﴾: دائم. و﴿ثَاقِبٌ﴾: المحرق.

وليست الشهب نفس الكواكب التي زينت بها السماء، فإنها لا تنقضّ. وإلّا، لانتقصتْ زينة السماء بل لم تبق.

على أن المنقضّ إن كان نفس الكوكب ـ بمعنى أنه ينقلع عن مركزه، ويرمى به الخاطف، فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار ـ لزم أن يقع على الأرض. وهو إن لم يكن أعظم منها، فلا أقلّ من أن ما انقضّ من الكواكب، من حيث حدث الرمي إلى اليوم، أعظم منها بكثير، فليزم أن تكون الأرض اليوم مغشيةً بأجرام الكواكب، والمشاهدةُ تكذب ذلك. بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلاً.

وأصغر الكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم، بل صغار الثوابت عندهم أعظم من الأرض.

والكلام في هذا المقام يطلب من محله.

---

(١) * إشارة إلى تبدل وتعدد مواقع شروق الشمس ما بين فترتي الانقلابين الصيفي والشتوي.

سُورة الشّورىٰ

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه الآية تدل بصريحها على وجود حيوانات في السماوات، لأن الدابة لا تشمل الملائكة، لأنه في آية أخرى قابل بين الدابة والملك، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . . .﴾ [النحل: ٤٩].

بل، لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتّى وأحوال مختلفة لا نعلمها، ولم يُذْكَرْ في الأخبار شيءٌ منها.

فقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جِرم القمر والسيارات[1]. لكنهم لم يحققوا أمرها، لنقصٍ ما في الآلات على ما يدّعون.

ونفي ذلك، ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضرّ القول به.

وعلى القول بوجود حيوانات في السماء، فالآية تدل على أن العقلاء منهم مكلَّفون أيضاً.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي: حشرهم بعد البعث للمحاسبة.

ومعلوم أن غير المكلف لا يحشر. وتمام الكلام في موضعه.

---

(١) لم يثبت وجود مخلوقات في القمر ولا في غيره من السيارات، وما زال الناس يحاولون اكتشاف المخفي.

سُورة الدّخان

قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾[1] يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: تأتي السماء بجدب ومجاعة، فإن الجائع جداً جرى بينه وبين السماء هيئة الدخان، وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه، فيتوهم ذلك. فإطلاق الدخان على ذلك المرئيّ باعتبارِ أن الرائي يتوهمه دخاناً، ولا يأباه وصفه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾. أو لأن الهواء يتكدر سنةَ الجدب بكثرة الغبار، لقلّة الأمطار المسكّنة له. أو أن السماء يظهر منها دخان كثير حقيقةً، وذلك لقرب الساعة، وفي التفسير تفصيل ذلك.

وهذه الآية لا دخل لها في هيئة السماوات والأرض، إلاّ على وجه بعيد.

❁ ❁

وقال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يراد بالبكاء عدم الاكتراث بهلاكهم، ولا الاعتداد بوجودهم. وقد كثر في التعظيم لِمَهْلكِ الشخص: (بكت عليه السماء والأرض)، (بكته الريح)، ونحو ذلك. وفي التفسير شواهد كثيرة من شعر العرب عليه.

ومن أثبت ـ كالصوفية ـ للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها، لم يحتج إلى اعتبار المجاز، وأثبت بكاءً حقيقياً لها بحسب ما تقتضيه ذاتها ويليق بها. أو أَوَّلَهُ بالحزن أو نحوه، أو أثبته لها بحسب ذلك أيضاً.

---

(١) * السحب الدخانية كثيرة في السماء، وأرجح. أن الله قصد بذلك الدخان فعلاً الذي يحمل العذاب الشديد بسبب حرارته أو تركيبه المضر، وليس الأمر كما يرى المؤلف ـ رحمه الله.

سورة قَ

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت؟ وهذا ظاهر على ما هو المعروف بين الناس من أن المشاهَدَ هو السماء التي هي الجِرم المخصوص الذي يطوَى يوم القيامة، وقد وُصف بالآيات والأحاديث بما وصف.

وأما على ما ذهب إليه من أن المشاهد هو كرة البخار[1]، أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقة ودون ذلك الجِرم، ففيه خفاء.

وقال بعض الأفاضل في هذا المقام: إن ظاهر الآيات والأخبار ناطقة بأن السماء مرئية.

وما ذكره الفلاسفة المتقدمون من أن الأفلاك أجرام صلبة شفافة لا تُرَى، غير مسلَّم أصلاً.

وكذا كون السماوات السبع هي الأفلاك السبعة، غير مسلم عند المحققين. وكذا وجود كرة البخار، وأن ما بين السماء والأرض هواء مختلف الأجزاء في اللطافة، فكلما علا كان ألطف، حتى أنه ربما لا يصلح للتعيش، ولا يمنع خروج الدم من المَسامّ الدقيقة جداً لمن وصل إليه؛ وأن رؤية الجو بهذا اللون، لا ينافي رؤية السماء حقيقة وإن لم تكن في نفسها

---

(١) * لا وجود لمثل هذه الكرات في الفضاء ولا يوجد فيها هواء لأن المادة تكاد تكون متمركزة كلياً في النجوم وبدرجة أقل بكثير في الكواكب.

ملوّنة، ولا يكون ذلك كرؤية قعر البحر أخضر من وراء مائه، ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون وهو في نفسه على غير ذلك اللون.

وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر، حتى يظهر دليل على امتناع ما يدلّ عليه. وحينئذٍ يؤوّلونها؛ وأن التزام التطبيق بين ما نطقت به الشريعة وما قاله الفلاسفة ـ مع إكذاب بعضه بعضاً ـ أصعب من المشي على الماء، أو العروج إلى السماء.

ومعنى ﴿بَنَيْنَاهَا﴾: أحكمناها ورفعناها بغير عَمَد، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ للناظرين بالكواكب المرتبة على أبدع نظام ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي من فتوق وشقوق، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل، فلا ينافي القول بأن لها أبواباً.

ومعنى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ قد مرّ مراراً.

سُورة القَمَر

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

أي: انفصل بعضه عن بعض، وصار فرقتين، وذلك على عهد رسول الله - ﷺ - قبل الهجرة بنحو خمس سنين.

وأنكر الفلاسفة الانشقاق، بناءً على زعمهم ٱستحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية. ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت، وفي التفسير أدلّة الطرفين والمحاكمة بينها.

وقد رأيت في «تاريخ اليميني» أن السلطان محمود بن سبكتكين الغَزْنَويّ[1] رأى في بعض غَزَواته بلاد الهند الوثنية لوحاً من الصخر على بعض قصور بلدهم. منقوشاً فيه:

أَنه تمّ بناؤه ليلةَ انشقاق القمر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

❁❁

وقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾.

أي: منصب.

---

(١) هو السلطان الغزنوي محمود بن سُبكتكين، يمين الدولة أبو القاسم (٣٦١-٤٢١هـ = ٩٧١-١٠٣٠م). فاتح الهند، وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور. وكانت عاصمته غزنة وفيها ولادته ووفاته. كان حازماً صائب الرأي، يجالس العلماء ويناظرهم. وكان من أعيان الفقهاء، فصيحاً بليغاً، إستعان بأهل العلم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة، نُسبت إليه.

واضطربت الأقوال في المراد بـ (الأبواب). ومن أظهرها أنها «المَجَرَّةُ»[1]، وهي شرج السماء كشرج العَيْبَة، والمعروف من الأرصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً. والتفصيل في التفسير.

---

(١) * المجرات عملاقة المقياس وهي: مجموعة هائلة من النجوم المتجمعة في منظومات صغيرة (٢، ٣، ٤، إلى ١٠ نجوم) ولكل منها مركز جذب تدور حوله، وعدد المجرات المعروفة تعد بعشرات الآلاف، وأبعد مجرة تم تصويرها تقع على بعد مليار سنة ضوئية وأكثر، وتم رصد تيلسكوبياً على بعد (٥) مليارات سنة ضوئية، وأقرب مجرة لنا سحابة أندروميد التي تبعد عنا مسافة (١,٥) مليون سنة ضوئية، وللمجرات أشكال مختلفة: أهليليجية وحلزونية وغير محددة، وأبعادها شديدة الاختلاف، قطر بعضها يصل إلى (٥٠,٠٠٠) بارسيك والآخر (٥٠٠) بارسيك، وكتلها أكبر من الشمس بـ (١٠^{٩}-١٠^{١٢}) مرة، وسطوح أكبرها يزيد عن الشمس بأربع مليارات مرة. وتعرف مجرتنا باسم درب التبان، وطريق الحج، وطريق الحليب، [وهذه التسميات تابعة لمظهرها كغيا التبن. ولأنها تبدأ في بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب وفيه الحجاز. وبياضها المشابه للحليب]. وتحتوي أكثر من (١٥٠) مليار نجمة و(١٠٠) مليون سحابة وكتلها تزيد عن كتلة الشمس بأكثر من (١٣٠) مليار مرة، ومجرتنا حلزونية ويبلغ قطرها (٣٠,٠٠٠) بارسيك وتكون مع سحابة أندروميد وثلاث مجرات عملاقة حلزونية و(١٥) مجرة قزمة اهليليجية أخرى، مركز جذب مشترك. تدور مجرتنا حول قطبها بسرعه (٢١٢) مليون سنة، وذلك على بعد (٨) كيلو بارسيك (١ × ١٠٠٠ بارسيك) من المركز و(٢٧٥) مليون سنة على بعد (١٠) كيلو بارسيك.

سُورة الطّلاَق

قال عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾[1].

تقدم الكلام على عدد السماوات غير مرة.

وأما الأَرَضُونَ السبع، فقد حارت فيها عقول المفسرين، وذكروا فيها أقوالاً كثيرة. وقد جعلها الله تعالى مثل السماوات، والمِثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف، فقال الجمهور: المثلية ها هنا في كونها سبعاً، وكونها طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى، وورد في بعض الأخبار:

في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. والمراد أن في كل أرض خلقاً، يرجعون إلى أصل واحد رجوعَ بني آدم في أرضنا إلى آدم، وفيهم أفراد ممتازون على سائرهم كنوح وإبراهيم وغيرهما فينا[2].

وقول الجمهور هذا أصحّ سائر الأقوال، وهو أن بين كل أرض وأرض من السبع مسافةً عظيمة، وفي كل أرض خلق لا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل، ولهم ضياء يستضيئون به. ويجوز أن يكون عندهم ليل ونهار، ولا يتعين أن يكون ضياؤهم من هذه الشمس ولا من هذا القمر.

وقد غلب على ظن أكثر أهل الحكمة الجديدة أن القمر عالم كعالم أرضنا

---

(١) * لم يتعرف العالم إلى الآن على وجود أرض تشبه أرضنا في الكون المحيط بنا، وهذا لا ينفي وجودها، وكمسلمين نسلم بقوله تعالى.

(٢) * وهذه الأقوال لا شيء يثبتها، وعلمياً لا أساس لها من الصحة.

هذه، وفيه جبال وبحار، ويزعمون أنهم يحسون بها بواسطة أرصادهم. وهم مهتمون بالسعي في تحقيق الأمر فيه. فليكن ما يقول به الجمهور من الأرضين السبع على هذا النحو.

وقد قالوا أيضاً: إن هذه الشمس في عالم هي مركز دائرته، وبلقيس[1] مملكته. بمعنى أن جميع ما فيه من كواكبه السيارة تدور عليها فيه على وجه مخصوص ونمط مضبوط، وقد يقرب إليها فيه ويبعد عنها إلى غاية لا يعلمها إلا الله تعالى كواكبُ ذوات[2] الأذناب، وهي عندهم كثيرة جداً، تتحرك على شكل بيضي. الشمس تابعة لمجرتنا وتدور في فلكها، تدور عليه دورانَ توابعها من السيارات عليها، وهو فيما نسمع أحد كواكب النجم. ولهم ظنٌ في أن ذلك أيضاً من توابع كوكب آخر، وهكذا. وملك الله العظيم عظيم، لا يكاد يحيط به منطقة الفكر، ويضيق عنه نطاق الحصر.

وسماء كل عالم كالقمر عندهم ما انتهى إليه هواؤه، حتى صار ذلك الجرم في نحو خلاء فيه، لا يعارضه ولا يضعف حركتَهُ شيء. والجسم متى تحرك في خلاء، لا يسكن لعدم المعارض. فلتكن كل أرض من هذه الأرضين السبع محمولة بيد القدرة بين كل سماءين، وهناك ما يستضيء به أهلها سابحاً في فلك بحر قدرة الله عز وجلّ، ونسبة كل أرض إلى سمائها نسبة الحلقة إلى الفلاة، وكذا نسبة السماء إلى السماء التي فوقها.

ويمكن أن تكون الأرضون، وكذا السماوات، أكثر من سبع. والاقتصار

---

(١) * أفكار مستقاة من أساطير الشعوب القديمة.

(٢) * يقصد بها المذنبات (come) ذات الذيول الطويلة أو القصيرة. كتلها صغيرة، أقل من كتلة الأرض بمليارات المرات، وتتحرك حول الشمس بمدارات طويلة جداً تستغرق في اجتيازها ملايين السنين. ويتألف المذنب من رأس مكون من كتلة جليدية مكونة من الماء وغاز الميثان وغاز الفحم والنشادر ممزوجة بقطع صخرية وغبار. وعند اقترابها من الشمس يأخذ الرأس بالتبخر بفعل الحرارة والريح الشمسية المادية ويظهر نتيجة لذلك ذيل طويل جداً (ملايين الكم).

على العدد المذكور الذي هو عدد تام، لا يستدعي نفي الزائد، فقد صرحوا بأن العدد لا مفهوم له.

هذا، وكثير من الأخبار في أمر السماوات والأرض والكواكب، لا يعول عليها كما أشار إليه النسفي[1] في «بحر الكلام».

وكذا ما قاله قدماء أهل الهيئة ومُحْدَثُوهم.

وفي كلٍّ مما ذهب الفريقان إليه ما يوافق الأصول وما يخالفه، وما الشريعة الغراء ساكتة عنه، لن تتعرض له بنفي أو إثبات.

وقد يلتزم الإبقاء على الظاهر، وتفويضُ الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لا يتعاصاها شيء، رعايةً لأذهان كثير من الناس المقيدين بالظواهر الذين يعدّون الخروج عنها ـ ولا سيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة ـ ضلالاً محضاً، وكفراً صِرْفاً.

ورحم الله امْرَأً جبَّ الغيبة عن نفسه، وعن ابن عباس في هذه الآية، قال: «لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها».

وفي الجملة: مَن صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل، لا ينبغي أن يتوقف في وجود سبع أرَضين على الوجه الذي قدمناه، ويحملَ السبع على الأقاليم، أو على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما. وليس ذلك مما يصادم ضرورياً من الدين، أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين.

---

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد بن معبد بن مكحول، أبو المعين النسفي الحنفي. (٤١٨-٥٠٨هـ = ١٠٢٧-١١١٥م). عالم بالأصول والكلام. كان بسمرقند وسكن بخارى. تفقه عليه علاء الدين أبو بكر محمد السمرقندي.
ومن كتبه: «بحر الكلام» ـ في علم التوحيد ـ و«تبصرة الأدلة» في الكلام، و«التمهيد لقواعد التوحيد» و«العمدة في أصول الدين» و«العالم والمتعلم» و«إيضاح المحجة لكون العقل حجة» و«شرح الجامع الكبير للشيباني» في فروع الحنفية، و«مناهج الأئمة» في الفروع.

آيات من سُور متفرقة

واعلم أنه قد بقيت آيات تتعلق بالسماوات، أعرضنا عن ذكرها، لسبق أمثالها. منها قوله تعالى في سورة الزُّمر: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ [الزمر: ٦٣].

ومنها قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

ومنها قوله تعالى في سورة فصّلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة المُلك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) * هذه إشارة واضحة إلى الزلازل المذهلة التي ستصيب الأرض قبيل قيام الساعة. ولقد أشير إلى هذا الأمر في مواضع عديدة في القرآن، كما في بداية سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾، وكذلك سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة النبأ ـ أي ـ (عَمَّ) ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾[1] وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) * للجبال جذور عميقة جداً في القشرة الأرضية تبلغ من (٥ إلى ١٠) أضعاف ارتفاعها فوق سطح الأرض، وذلك لتثبت في مكان (الرواسي) ولتمنع الأرض من الميل والاضطراب، وتحد من سرعة حركة القشرة الأرضية.

ومنها قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾[1].

ومنها قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾[2] وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ . . . ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) * يمكن للبحار والمحيطات التفجر، فيما إذا تدفقت من باطن الأرض كميات كبيرة من الصخور المصهورة العالية الحرارة (٨٠٠-١٢٠٠) درجة، فترتفع حرارة الماء الملامسة للمهل هذا إلى ما فوق درجة الحرارة الحرجة (٣٥٠-٤٠٠) درجة، وبسبب ضغط الماء الكبير الذي يعلوها ستقذف المياه المتسخنة عالياً بقوة الكتل المائية محدثة انفجاراً رهيباً. وإن حدوث الزلزلة العنيفة في آخر الزمان سيؤدي إلى تدفق كميات عظيمة من الصخور المصهورة من باطن الأرض إلى قيعان المحيطات وسطح الأرض، ويشهد تاريخ الأرض على ذلك.

(٢) نجد هنا إشارة رائعة من القرآن إلى طريقة جديدة لتكون الجبال ثم التعرف عليها في النصف الثاني من هذا القرن، فأكثر الآراء سابقاً تركز على الضغط الجانبي الذي تتعرض له مناطق الجبال (المقعرات البنائية) والذي يؤدي إلى ارتفاعها والتوائها، ولكن وجد أن سبباً آخر أهم من الأول يؤدي لارتفاع الجبال، هو صعود نوى الجبال الساخنة (باثوليث) نحو الأعلى، فتنتصب الجبال رأسياً نحو الأعلى كما في جبال هيمالايا والقفقاس. . . إلخ.

ومنها قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁

هذا آخر ما يسّره الله، مما تصدّينا له وقصدناه.

فله سبحانَهُ الحمد، حمداً لا يحصى ولا يعدّ؛ فإنه أنشأ الأشياء من غير شبح، وصوَّر ما صوّر من غير مثال، وٱبتدع المبتدعات بلا احتذاء. هو الذي قدّر كل شيء تقديراً، ويسَّرَ كلّ شيء تيسيراً، ودبّر ما دبَّر تدبيراً. لم يعنه على خلقه شريك ولم يؤازره في أمره وزير، ولم يكن له مشابه ولا نظير. هو الذي ابتدأ واخترع، واستحدث وابتدع، وأحسن صُنْعَ ما صَنَعَ. سبحانَهُ، ما أجلَّ شانَهُ، وأصدعَ بالحق فُرقانَهُ!

فأسألك اللهمّ ربّ السماواتِ السَبْع وما أظلّت، وربَّ الأَرَضين السبع وما أقلَّتْ، وربَّ الشياطين وما أضلّت، أن تكون لي جاراً من شرّ خلقك جميعاً أن يفرط عليَّ أحدٌ منهم أو أنْ يطغى. عزّ جارك ولا إلَه غيرك.

وكان ذلك لست بقين من شوّال سنة تسع وثلاثين
وثلاثمائة وألف من هجرة سيّدِ الكائنات،
وإمام الموجودات، حبيب رب العالمين،
ومصطفى الخلق أجمعين.

فهرس أوائل الأحاديث والآثار

«أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» ١٢٢
«أتدرون ماذا قال ربكم؟» ٤٢
«أتدري من السائل؟» ١٢٣
«إذا طلع النجم ارتفعت العاهة» ٨٧
إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت ـ مالك ـ ١٤
«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» ..... ١٤، ٤٢
إنّ الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة ٤٩
«إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلق الله السماوات والأرض» ٦٣
أنّ اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض ٢١
إنّ رسول الله ﷺ صلى الصبح في إثر ماء ٤٢
«إنّ هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش» ١٢٢
أنّ وراء أرضنا بحراً محيطاً ـ ابن عباس ـ ٧١
أنه جبل من زمرد محيط بالدنيا ـ ابن بريدة ـ ٧١
أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي ٣٠
أنه ﷺ رأى موسى يصلي في قبره ١٢٥
«أنه (العرش) لا يقدر قدره أحد» ..... ٣١، ٤٩
أنها من الجنة وهي سيحان وجيحان... ..... ٧٦
بينا نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل ١٢٣
«تذهب لتسجد فتستأذن للرجوع» ١٢٢
تمثل جبريل في صورة دحية ١٢٣
حديث المعراج ..... ٤٤، ٨٠، ١٢٥
«خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين» ٢١
«ذاك جبريل عليه السلام وهو يقرئك السلام» ١٢٤

رأيت رسول الله ﷺ واضعاً يديه على معرفة فرس ١٢٤
سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ ٣١
«فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» ١٢٣
في كل أرض نبي كنبيكم ١٣٦
«كان الله ولم يكن شيء غيره» ٩٧
«الكرسي موضع القدمين» .....٣٢، ٩٨
«﴿كرسيه﴾ موضع قدميه» ٣١
كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس ١٢٢
«لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد» ٧٥
لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بسطن ـ ابن عباس ـ ٣٠
«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء» ٧٠
«ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد» .....٤٩، ٩٨
«مطرنا بنوء كذا» .....١٤، ٤٢
«الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً» ٤٤
«نهرات مؤمنان ونهران كافران» ٧٧
ورآه في السماء ١٢٥
«لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون» ٩٣
«يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس» ١٢٢
«يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي» ٣٠

فهرس الأعلام

حرف الألف

آدم عليه السلام ١٣٦
إبراهيم عليه السلام ٦٣، ١٣٦
إبراهيم بن أدهم ١٢٥
أحمد بن البنا ٨٨
أحمد بن حنبل ٤٤، ٧٠، ٧٦، ٧٧، ١٢٤، ١٢٥
أسد (قبيلة) ١٠٥
أسكار الثاني ١٢
إسماعيل بن مصطفى ٧
الإسماعيلية ٥٨
ابن الأعلم ٥٦
الألباني ٧
ابن الأنباري ٧٨
أهل السنة ٣٤
أهل الكتابين ٦٣
أولبوس ٤٠

حرف الباء

البابليون ١١، ٦٤
البرجندي ٥٢
البزار ٤٦
بطليموس ١٢، ٥٦، ٨٢
أبو بكر الصديق (عبدالله بن أبي قحافة، ٦٣
بلقيس ٤٧، ١٣٧
بياظي ٤٠
البيضاوي ٢٤، ٦٧،
البيهقي ٢٠، ٣١، ٣٢

حرف التاء

الترمذي ٧٠
التفتازاني ١٢٥
تميم (قبيلة) ١٠٥
ابن تيمية ٣٨، ٤٦، ٥٦، ٦٦، ٩٣

حرف الثاء

ثعلبة بن غنم ٢٧

حرف الجيم

جبريل ١٢٣، ١٢٤
ابن جرير ٢١، ٣٠
جرير (ابن عبد الحميد الضبي) ٣٠
جعفر الصادق ٥٨
ابن الجوزي ٧٧

حرف الحاء

الحاكم ٢٠، ٣١، ٧٠

الحجاج بن يوسف ٨٧
الحريري ١٧
الحسن البصري ٣١
ابن حجر ١٢٤
حمير ١٠٤
ابو الحسن السندي ١٢٤
الخطيب البغدادي ٣٢

حرف الدال

دحية ١٢٤

حرف الذال

أبو ذر ٣٠، ٧٠، ١٢٤
ذو القرنين ٩١

حرف الراء

الرازي ٢١، ٥٠، ٥٢، ٦٩، ٨٩، ١١٦
الراغب الأصفهاني ١٠٤
الربيع ١٩
ربيعة ١٠٥
الروم ٦٢

حرف السين

السبكي ٨٩
السدي ٨٧
السريانيون ٦٢
ابن سعد ١٩، ١٢٤
أبو السعود ٦٧
سفيان ١٢٤
السكّاكي ٢٨
سليمان عليه السلام ٤٧
السيالكوتي ٢٥

حرف الشين

الشافعي ٢٥
شاهر جمال آغا ٧
الشاويش ٧٠
ابن أبي شيبة ٣١، ٣٢، ٩٨
الشيخان ١٤، ٦٣، ٩٣

حرف الصاد

الصابئين ٦٢، ٦٣
صالح أحمد الشامي ٧٠
الصوفية ٣٢، ٣٣، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١

حرف الضاد

الضحّاك ١٠١
الضياء ٣١، ٩٨

حرف الطاء

طيء ١٠٥

حرف العين

عائشة أم المؤمنين ١٢٤
العباس ١٤

ابن عباس ١٦، ١٧، ٢٠، ٣٠، ٣١، ٤٩، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٨٦، ٨٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٣٨
العرب ١٢، ١٣، ٦٣، ١٠٥، ١٣١
عبدالله بن بريدة ٧١
عبدالله بن خليفة ٣٢
عبدالله بن عمرو ٧٠
عبدالله بن عمر ١٠٠، ١٠١
علي بن أبي طالب ٣١
عبدالله بن معاوية ٥٨
عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ ٦
عثمان طه ٧
عثمان بن عفان ٣٠، ٣١
ابن عصفور ٨٧
ابن عطية ٧٢
أبو علي (ابن سينا) ٨٢
علي بن أبي طالب ٣١
عمر بن الخطاب ١٤، ٣١، ١٢٣
عمران بن حصين ٩٧
ابن عيسى ٨٧
ابن عمرو ٧٠
عيسى (عليه السلام) ١٣٦

حرف الغين

الغزالي ٢٥، ١٠٤
غطفان ١٠٥

حرف الفاء

الفراء ١٩
الفلاسفة ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٤٥، ٧٠، ١٢٥، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤
فيثاغورس ١١

حرف القاف

القبط ٦٢
قتادة ٨٧
ابن قتيبة ٤١، ٤٢، ٥٤، ٨٨
قريش ١٠٥
القسطلاني ٧٠
ابن القيم ٣٨، ٤٢، ٨٩، ١٠٢

حرف الكاف

ابن كثير ٣٢
كعب الأحبار ١٠٠
الكلبي ٨٦، ١٠٨
ابن الكلبي ٢٧
كنانة ١٠٥

حرف اللام

لجم ١٠٥
أبو لؤلؤة ١٤

حرف الميم

ابن ماجه ٤٤، ٧٠

مالك ١٤
مجالد ١٢٤
مجاهد ٦٧، ٧٢، ٧٩، ١٠٨
المجوس ٦٣
المحدثون ٣٤، ٣٧
محمد أمين الخراساني ٧
محمد بهجة الأثري ٦، ٧، ١٠، ١٢
محمد بن عبد الوهاب ١٠
محمود بن سبكتكين ١٣٤
محمود شكري الألوسي ٥، ٩، ١٠، ١٢
محمود شهاب الدين الألوسي ٣٧
محيي الدين (ابن عربي) ٢٩، ٣٥، ٣٧، ٦٥، ٦٦، ٨٢، ٨٣، ١٢٥
محيي الدين (من أصحاب الطوسي) ٥٦
عبدالله بن مسعود الهذلي ٧٩
مسلم ٧٧، ١٢٥
المصريون ١١
معاذ بن جبل ٢٦، ٢٧
المغيرة ١٤
مقاتل ٢٢
ابن منذر ٣٠
المنصور ١٩
موسى (عليه السلام) ٩٣
أبو موسى (الأشعري) ٣١، ٣٢، ٩٨

حرف النون

ابن ناصر الدين الدمشقي ٤٦
النسائي ١٢٤، ١٢٥
النسفي ١٣٨
النصارى ٩٥
نصير الطوسي ٥٦
نعمان خير الدين الألوسي ٩
أبو نعيم ١٢٥
نوح عليه السلام ١٣٦
النووي ١٢٢

حرف الواو

الواحدي ٢٢، ١٢٢

حرف الهاء

هاردنق ٤٠
هرشل ٢٩، ٤٠، ٥٢
أبو هريرة ٤٤، ١٢٤
ابن الهيثم ٥٣

حرف الياء

اليهود ٢١

فهرس الكتب

أ

الآثار ٨٧
الآية الكبرى على ضلال النبهاني ١٠
الإجماع (لابن المنذر) ٣٠
الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية ١٠
الأحاديث المختارة ٣١
إحياء علوم الدين ٢٥
أخبار بغداد ٩
أخبار الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ٢١،
الاختلاف (لابن المنذر) ٣٠
أدب الكاتب ٤١
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود) ٦٧
إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٧٠
أسباب النزول ٢٢
الاستيعاب ٢٧
الأسماء والصفات ٣١، ٣٢
الأشباه والنظائر ٨٩
الإصابة ٢٧
الأعلام العلية ٤٦
أعلام الموقعين ٣٨
إغاثة اللهفان ٣٨
الأم ٢٥
الأنواء ١٣، ٤١، ٤٢، ٥٤، ٨٨
أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) ٢٤
الأوسط في السنن ٣٠
ايضاح المحجة لكون العقل حجة ١٣٨
الإيمان (لابن تيمية) ٤٦

ب

بحر الكلام ١٣٨
بدائع الفوائد ٣٨
بدائع الانشاء ١٠
البسيط ٢٢
بلوغ الأرب ٩، ١٢، ٨٦
بيان الهدى من الضلال ٥٦

ت

تاريخ بغداد ٣٢
تاريخ نجد
تاريخ اليميني ١٣٤
تأويل مشكل القرآن ٤١

تبصرة الأدلة ١٣٨
تحرير أصول إقليدس ٥٦
تحرير المجسطي ٥٦
تربيع الدائرة ٥٦
تفسير البيضاوي ٢٤
تفسير الرازي ٢١
تفسير القرآن (لابن المنذر) ٣٠
تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ١٠٤
التمهيد لقواعد التوحيد ١٣٨
تهذيب المنطق ١٢٥

ج

جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) ٢١
جمع الجوامع (للسبكي) ٨٩

ح

حاشية على تفسير البيضاوي (للسيالكوتي) ٢٥
حاشية على الجرجاني (للسيالكوتي) ٢٥
حاشية على شرح العضد ١٢٥
حاشية على القطب على الشمسية (للسيالكوتي) ٢٥
حاشية على المطول (للسيالكوتي) ٢٥
حل الرموز ٧١

د

درة الغواص في أوهام الخواص ١٧
الدلائل العقلية ٩
ديوان رسائل (للحريري) ١٧
ديوان شعر (للحريري) ١٧
الذريعة إلى مكارم الشريعة ١٠٤

ر

الرد الوافر ٤٦
رسائل إخوان الصفا ٩٤
الرسالة ٢٥
رسالة الأبعاد والأجرام ٥١
روح المعاني ٣٧، ٨٦، ٨٩، ١٢٣، ١٢٩

ز

زاد المعاد ٣٨
زاد المسير في علم التفسير ٧٧

س

سلسلة الأحاديث الضعيفة ٨٧
السنن الكبرى (للبيهقي) ٢٠

ش

شرح الجامع الكبير ١٣٨
شرح الحماسة ٨٧
شرح ديوان المتنبي (للواحدي) ٢٢
الشفاء (لابن سينا) ٨٢

ص

صحيح البخاري ٩٧
صحيح الجامع الصغير ٢١، ٧٠، ١٢٢
صحيح سنن ابن ماجه ٤٤، ٧٠
صحيح سنن الترمذي ٧٠
صحيح سنن النسائي ١٢٥
الصحيحان ١٦، ٤٢، ٦٣، ٩٣، ١٢٥
الضرائر ١٠

ط

الطبقات ـ ابن سعد ـ ١٩، ١٢٤
طبقات الشافعية الكبرى (للسبكي) ٨٩

ع

العرش (ابن أبي شيبة) ٣١، ٣٢، ٩٨
عقائد السيالكوتي ٢٥
العمدة في أصول الدين ١٣٨
العالم والمتعلم ١٣٨
عيون الأخبار ٤١
غاية الأماني ٩

ف

الفتاوى (لابن تيمية) ٤٦
الفتح الباري ١٢٢
الفتوحات المكية ٢٩، ٨٣
فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ١٠

ك

كتاب العرش (لابن تيمية) ٩٣
الكفاية ٨٤

ق

قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٤٦
القانون (لابن سينا) ٨٢
القصيدة النونية في العقيدة ٣٨

ل

اللوامح ٨٧

م

المبسوط (لابن المنذر) ٣٠
المجسطي ١٢
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء ١٠٤
المستدرك على الصحيحين ٢٠، ٣١
مسند الإمام أحمد ٤٤، ٧٠، ٧٧، ١٢٥
مشكاة المصابيح ٧٠
المطول ١٢٥
معاني القرآن ١٩

المغرب ٨٧
مفتاح دار السعادة ٤٢، ٧١، ٨٩، ١٠٢
مفتاح العلوم ٢٨
مفردات الراغب ١٠٤
المقامات ١٧
المقرب ٨٧
الممتع ٨٧
مناهج الأئمة ١٣٨
المنخول ٢٥
المنهاج (للبيضاوي) ٢٤
منهاج السنة ٤٦، ٦٦
المواهب اللدنية في المنح المحمدية ٧٠
الموطأ ١٣

ن

نقض المنطق ٤٦

و

الوجيز (للواحدي) ٢٢
الوسيط (للواحدي) ٢٢

هـ

الهيئة (لابن سينا) ٨٢

فهرس موضوعات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	**مقدمة بقلم زهير الشاويش**
٤	القرآن يشير إلى الحقائق والنواميس الكونية
٥	القرآن أعطانا مفتاح المعرفة في العلوم المختلفة
٩	**ترجمة المؤلف**
١١	**مقدمة المؤلف**
١١	فيثاغورس والقول بحركة الأرض اليومية والسنوية حول الشمس
١٢	بطليموس ونظريته بأن الأرض ثابتة
١٢	كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب» ونيله جائزة ملك السويد
١٣	اهتمام العرب قديماً بعلم حركة النجوم
١٣	تعريف الأنواء
١٤	حديث: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...»
١٤	ترجمة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٤	ترجمة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه
١٦	**سورة البقرة**
١٦	**تفسير كلمة ﴿فراشاً﴾**
١٦	ترجمة الصحابي عبدالله بن عباس رضي الله عنهما
١٧	ترجمة الحريري
١٧	البخار يتشكل من المسطحات المائية وفي الطبقة الدنيا من الجو
١٨	تفسير ﴿ثم استوى إلى السماء﴾
١٨	كمية التبخر والهطول محدودة ومتوازنة
١٩	ترجمة الربيع بن أنس، والفراء

الصفحة	الموضوع
١٩	كيفية تشكل الكون
٢٠	ترجمة الحاكم، والبيهقي
٢١	حديث: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين...»
٢١	ترجمة ابن جرير الطبري، والرازي
٢٢	اختلف المفسرون في أن خلق السماء مقدم أو مؤخر على خلق الأرض
٢٢	ترجمة الواحدي، ومقاتل
٢٤	ترجمة البيضاوي
٢٥	ترجمة الإمام الشافعي، والغزالي، والسيالكوتي
٢٥	رأي متأخري الفلاسفة حول خلق السماء
٢٦	الأهلة
٢٧	ترجمة معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة رضي الله عنهما
٢٨	الأهلة هي مواقيت للناس والحج
٢٨	ترجمة السكّاكي
٢٩	ترجمة ابن عربي، وهرشل الحكيم
٣٠	تفسير (الكرسي)
٣٠	ترجمة جرير، وابن المنذر النيسابوري، وأبو ذر الغفاري رضي الله عنه
٣٠	حديث: «يا أبا ذر ما السماوات السبع...»
٣١	حديث: «وسع كرسيه السماوات والأرض»
٣١	ترجمة الحسن البصري، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنه
٣٢	حديث: «الكرسي موضع القدمين...»
٣٤	**سورة آل عمران**
٣٤	اختلاف الليل والنهار
٣٥	الشمس ليست مركزاً للعالم وإنما هي جزء من مجرتنا المرتبطة بالمجرات الأخرى

الصفحة	الموضوع
٣٦	طبقات الأرض
٣٧	ترجمة محمود الألوسي جدّ المؤلف
٣٧	الرد على من ادعى أن الأرض مبسوطة
٣٨	ترجمة الإمام ابن القيم
٣٩	**سورة الأنعام**
٣٩	النجوم والكواكب السيارة
٤٠	القمر كوكب تابع للأرض
٤١	معنى ﴿لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾
٤١	ترجمة ابن قتيبة
٤١	تعلم علم النجوم
٤٢	حديث: إن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح في إثر ماء
٤٢	بعض الناس لا همّ لهم سوى تكفير الناس
٤٤	**سورة الأعراف**
٤٤	حديث: «الميت تحضره الملائكة..»
٤٤	حديث المعراج
٤٤	ترجمة أبي هريرة رضي الله عنه
٤٥	تفسير الأيام بالأوقات
٤٦	ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية
٤٧	تفسير ﴿ثم استوى على العرش﴾
٤٧	الشمس موجودة في مجرتنا وليست في السماء الرابعة
٤٨	سطح القمر يعكس أشعة الشمس وهو ليس منبع النور
٤٩	**سورة براءة**
٤٩	تفسير (العرش)
٤٩	أثر: إن الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة
٤٩ و٩٨	حديث: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة...»

الصفحة	الموضوع
٤٩	أثر لابن عباس: إنه لا يقدر قدره أحد
٥٠	**سورة يونس**
٥٠	الشمس: كتلتها، حرارتها
٥١	الزعم بأن الأفلاك الكلية: تسعة
٥٣	الكواكب سابحة في الجو بنفسها، متحركة بالجاذبية
٥٣	ترجمة ابن الهيثم
٥٤	منازل القمر
٥٥	البروج الاثني عشر
٥٦	ترجمة ابن الأعلم، ونصير الطوسي، ومحيي الدين المغربي الحلبي
٥٨	ترجمة جعفر الصادق، وعبدالله بن معاوية
٥٨	الأهلة هي مواقيت للناس والحج
٦١	السنة القمرية
٦٣	حديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته...»
٦٣	ترجمة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٦٤	البابليون أول من قسم الأسبوع إلى سبعة أيام
٦٤	تعاقب الليل والنهار
٦٦	**سورة هود**
٦٦	اليوم وتحديد الزمن
٦٧	احتمال وجود أراضين غير أرضنا في الكون
٦٧	ترجمة مجاهد، وأبي السعود
٦٨	**سورة الرعد**
٦٩	الغلاف الجوي للأرض
٧٠	ترجمة القسطلاني
٧٠	حديث: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء...»
٧١	ترجمة بريدة بن الحصيب الأسلمي

الصفحة	الموضوع
٧٢	للنجوم والكواكب عمر زمني ثم يتلاشى
٧٢	ترجمة ابن عطية
٧٣	الكواكب السيارة
٧٤	كروية الأرض
٧٥	تفسير ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي﴾
٧٥	حديث: «لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد»
٧٦	أنهار الأرض
٧٧	حديث: «نهران مؤمنان ونهران كافران»
٧٨	**سورة إبراهيم**
٧٨	﴿تبدل الأرض﴾
٧٨	ترجمة ابن الأنباري
٧٩	ترجمة الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
٨٠	**سورة الحجر**
٨١	الأبراج
٨٢	ترجمة ابن سينا
٨٤	تفسير ﴿وألقينا فيها رواسي﴾
٨٦	**سورة النحل**
٨٦	ترجمة الكلبي
٨٧	ترجمة قتادة، والسدي
٨٧	ضعف حديث: «إذا طلع النجم ارتفعت العاهة»
٨٧	ترجمة ابن عصفور
٨٨	ترجمة ابن البناء
٨٩	**سورة الإسراء**
٨٩	تسبيح السماوات السبع والأرض
٨٩	ترجمة ابن السبكي

الصفحة	الموضوع
٩١	**سورة الكهف**
٩١	تعريف الشروق والغروب
٩٢	**سورة مريم**
٩٣	**سورة طه**
٩٣	﴿الرحمن على العرش استوى﴾
٩٣	حديث: «لا تخيروا بين الأنبياء...»
٩٣	رد ابن تيمية على من قال: إن العرش هو الفلك التاسع
٩٤	إخوان الصفا
٩٧	حديث: «كان الله ولم يكن شيء غيره...»
٩٧	ترجمة الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنه
٤٩ و٩٨	حديث: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من...»
٩٨	حديث: «الكرسي موضع القدمين..»
٩٩	**سورة الأنبياء**
٩٩	كيف تشكل الكون
١٠٠	إن السماوات والأرض كانتا رتقاً ثم فتقها
١٠٠	ترجمة كعب الأحبار، والصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما
١٠١	الإشعاعات وطبقة الأوزون
١٠١	ترجمة الضحاك بن مزاحم
١٠٢	تفسير ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾
١٠٤	**سورة الحج**
١٠٤	﴿يسجد له من في السماوات ومن في الأرض
١٠٤	ترجمة الراغب الأصفهاني
١٠٥	تفسير ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾
١٠٦	**سورة المؤمنون**
١٠٦	تفسير ﴿الطرائق﴾

الصفحة	الموضوع
١٠٧	**سورة النور**
١٠٧	تكون السحب
١٠٨	البَرَد
١١٠	**سورة الفرقان**
١١٠	دوران الأرض عكس الحركة الظاهرية للشمس
١١١	تحديد معنى اليوم
١١٢	**سورة الشعراء**
١١٢	تفسير ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾
١١٣	**سورة النمل**
١١٤	**سورة العنكبوت**
١١٥	**سورة الروم**
١١٧	**سورة لقمان**
١١٧	﴿خلق السماوات بغير عَمَدٍ ترونها﴾
١١٧	الإشارة إلى كروية الأرض وانقسامها إلى جزئين: مضيء ومظلم
١١٨	**سورة السجدة**
١١٩	**سورة سبأ**
١٢٠	**سورة فاطر**
١٢٠	الإشارة إلى دقة ترتيب الأجرام السماوية والأرض بحيث لا تتصادم أو تتقارب
١٢١	**سورة يس**
١٢١	جريان الشمس
١٢٢	حديث: «يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟»
١٢٣	الحكماء المتقدمون أثبتوا النفس للفلك
١٢٣	حديث: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»
١٢٤	ترجمة دحية الكلبي

الصفحة	الموضوع
١٢٥	ترجمة التفتازاني، وإبراهيم بن أدهم
١٢٦	كرامة الولي
١٢٧	البقع الشمسية، ودوران الشمس حول نفسها
١٢٩	**سورة الصافات**
١٢٩	الإشارة إلى تبدل وتعدد مواقع شروق الشمس
١٣٠	**سورة الشورى**
١٣١	**سورة الدخان**
١٣١	السحب الدخانية
١٣٢	**سورة ق**
١٣٤	**سورة القمر**
١٣٤	ترجمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي
١٣٥	المجرة
١٣٦	**سورة الطلاق**
١٣٦	أثر: في كل أرض نبي كنبيكم
١٣٧	المذنبات
١٣٨	ترجمة النسفي
١٣٩	آيات من سور متفرقة
١٤٠	للجبال جذور عميقة في القشرة الأرضية
١٤٢	**خاتمة الكتاب**
١٤٣	**فهرس الأحاديث والآثار**
١٤٥	**فهرس الأعلام**
١٤٩	**فهرس الكتب**
١٥٣	**فهرس الموضوعات**